سلسلة الدراسات التاريخية (28)

مدخل إلى
كتابة التاريخ
ومنهج البحث فيه

الدكتور
أحمد الياس حسين

الطبعة الأولى 2024م

سلسلة الدراسات التاريخية (28)

مدخل إلى
كتابة التاريخ
ومنهج البحث فيه

الدكتور أحمد الياس حسين

الطبعة الأولى
2024م

اسم الكتاب

مخل إلى
كتابة التاريخ
ومنهج البحث فيه

اسم الكاتب

الدكتور أحمد الياس حسين

الإيداع القانوني

...../2024م

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

الناشر

دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان

جوال: 121566207 - 00249122094856

البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:

الطبعة الأولى - 2024م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	5
علم التاريخ: تعريفه وموضوعه وأقسامه	7
موضوع علم التاريخ وأقسامه	13
أهمية دراسة علم التاريخ	17
كيف ندرس التاريخ	23
علم التاريخ عند المسلمين	29
تفسير التاريخ	37
تقسيم التاريخ إلى حقب	47
التقسيم الغربي للتاريخ العالمي العام والتقويم	53
البحث واختيار موضوعه	67
المصادر والمراجع وجمع المادة	69
مرحلة كتابة البحث ومتطلباتها	73
التوثيق: الهوامش وترتيب قائمة المصادر والمراجع	77

المقدمة

الغرض من هذا الكتاب إعداد الخطوط العامة لمقرر «مدخل لعلم التاريخ ومناهج البحث فيه» وينقسم الكتاب إلي قسمين، القسم الأول يتناول موضوعات تعريفية تمثل مدخلاً لعلم التاريخ. ويهدف هذا الجزء إلى الاجابة علي بعض الاسئلة الهامة التي تثار في عقول الدارسين لعلم التاريخ وهم في أول الطريق. ومن أهم تلك الأسئلة: ما هو علم التاريخ؟ وماذا يدرس؟ وكيف ندرسه؟ وما هي أهميته؟ وكيف بدأ هذا العلم وتطور؟

ويسعى القسم الثاني إلي تعريف الدارس بالبحث وتزويده بالمعلومات الأساسية التي تمكنه من كتابة البحث من البداية عند اختيار الموضوع والتعرف على المصادر والمراجع وجمع المادة وتصنيفها ومتطلبات كتابة البحث وعمليات التوثيق. ونأمل في النهاية أن يتمكن الدارس من تكوين فكرة واضحة في ذهنه عن علم التاريخ، وأن يكون قد تزود بالمهارات الضرورية التي تمكنه من كتابة البحث في هذه المرحلة المبكرة على طريق التعليم الجامعي.

1

علم التاريخ
تعريفه وموضوعه وأقسامه

أ. كلمة تاريخ:

التاريخ كلمة ذات جذور في اللغة السامية التي انحدرت منها اللغة العربية، وقد اتفق اللغويون المتقدمون مثل الجوهري والجواليقي على الأصل العربي لكلمة تأريخ، فالتأريخ والتَّوْريخ «يعني تعريف الوقت» ويقال «ورخت الكتاب توريخاً على لغة بني تميم وأرختـه تأريخاً على لغة قيس. [1] يقول الرازي التاريخ والتوريخ تعريف الوقت، تقول: أرخت الكتاب بيوم كذا وورختـه بمعنى واحد.[2] وأرجعها البعض إلى الجذور السامية القديمة – مثل الأكدية والأرامية – بمعنى القمر أو الشهر أو الميعاد، فهي في اللغة الأكدية: أرّخو أو ورّخو وفي اللغة الآرامية يرخ وفي اللغة العربية الجنوبية ورّخ.»[3]

ورغم هذا التأصيل العربي لكلمة تاريخ فهنالك رواية تقول بأن أصل الكلمة غير عربي مستندين على الرواية التي ربطت كلمة التاريخ بـ»ماه روز». وقد ورد هذا الرأي في المصادر العربية في روايتين. الأولى استندت إلى ما روي عن ميمون بن مهران ذكرها حمزه الأصفهاني والبيروني جاء فيها: أن المسلمين في عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب احتاجوا إلي تأريخ رسائلهم، فاستشار المسلمون الهرمزان . وقد كان الهرمزان حاكماً على الأهواز الفارسي وأُسر عندما

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون موقع الوراق warraq.com ج 1 ص 271.

(2) الرازي، مختار الصحاح الكويت: دار الرسالة 1983 ص 13.

(3) الجوهري، الصحاح مصر: دار الكتاب العربي ب. ت. ج 1 ص 419. الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم تحقيق ف. عبد الرحيم ، دمشق: دار القلم 1999، ص 331 وانظر السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ بيروت: دار الكتب العلمية ب. ت. ص 15.

فتح المسلون فارس، وحمل إلى المدينة وأسلم على يد عمر بن الخطاب. قال الهرمزان : «إن لنا حساب نسميه ماه روز أي حساب الشهور والأيام فعربوا ماه روز فقالوا: مؤرخ، وجعلوا مصدرها التاريخ وشرح لهم الهرمزان كيفية استعمالهم ذلك.»[1]

والرواية الثانية ذكرها الكافيجي والسخاوي وتتفق مع الرواية الأولى اتفاقاً كاملاً من حيث المحتوى وتختلف معها في مصدر الرواية. فقد اسندت الرواية هنا إلى أبي موسى الأشعري، كما أشار إليها البيروني أيضاً دون أن يورد تفاصيلها.[2] وقد نقلت هذا الرأي القواميس العربية المتأخرة وبعض المصادر العربية المتأخرة وأخذ عن هذه المصادر المؤرخون المحدثون الغربيون والشرقيون وربطوا بين «ماه روز» وأصل كلمة تاريخ. وقد أدى هذا الربط إلى الخروج بنتائج تتعارض مع ما ذكرناه عن اتفاق الكثير من القواميس والمصادر العربية المبكرة من الأصل العربي لكلمة تاريخ. وقد رفض هذه الرواية بعض المؤلفين القدامى منذ القرن الرابع الهجري (10م) مثل الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم.[3]

ولو افترضنا أن أصل كلمة تاريخ غير عربية دل ذلك على أن العرب قبل الاسلام ليس لديهم هذا المفهوم، أي ليس لديهم وعي أو حس تاريخي وهو الأمر الذي تنفيه الكثير من الأدلة. فالعرب في جنوب شبه الجزيرة في مناطق الخليج العربي واليمن وفي شماليها في جنوبي العراق والشام شيدوا حضارات قديمة ساهمت في التراث الانساني مساهمات واضحة، وخلفوا الكثير من الآثار المادية والمكتوبة التي عكست تطور حسهم ووعيهم التاريخي.

وحتى في وسط شبه الجزيرة العربية حيث سادت الحياة البدوية القبلية ولم تقم وحدات سياسية كبرى، فإن هنالك الكثير من الأدلة التي وضحت اهتمام تلك القبائل بماضيها وحفظه، بعض تلك الآثار تمثلت في المادة المكتوبة مثل ما دون من الشعر الجاهلي الذي سجل حياة القبائل وطريقة معيشتها وحروبها والذي كان يكتب ويعلق في الكعبة. والبعض الآخر من تراث تلك القبائل نقل عن طريق الروايات الشفاهية مثل الروايات الي تضمنت مادةً غزيرةً عن أيام العرب وعن أنسابها. كل ذلك يوضح وجود الحس التاريخي حتى بين القبائل البدوية.

(1) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية بغداد: مكتبة المثنى مصور من طبعى ليبزج 1923 ص 29.

(2) السخاوي، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ بيروت: دار الكتب العلمية ب. ت. ص 14. البيروني، نفس المكان السابق.

(3) الخوارمي، مفاتيح العلوم القاهرة: مطبعة الشرق ب ت. ص 37.

أمـا الكلمـة الانجليزيـة History فترجـع جذورهـا إلى الكلمـة اللاتينيـة Historiaذات الأصـل اليونانـي الـذي كان يـدل في البدايـة عـلى البحـث عـن الأشـياء التـي تتطلـب المعرفـة. ثـم تطـور المفهـوم ليـدل عـلى التعـرف عـلى أحـداث المـاضي. وتَبَنّـى الرومـان الذيـن سـادت ثقافتهـم وحضارتهـم بعـد اليونانيـين الاهتمـام بأحـداث المـاضي ونقلـوا هـذا المفهـوم لأوربـا الحديثـة. فقـد اشـتقت كلمـة تاريـخ في أغلـب اللغـات الأوربيـة الحديثـة مـن كلمـة Historia اللاتينيـة والكلمـات التـي تـدل عـلى دراسـة المـاضي مثـل History في اللغـة الانجليزيـة وL'stoire في اللغـة الفرنسـية. وهـو نفـس المعنـى لكلمـة «تاريـخ» في اللغـة العربيـة.

ب. تعريف علم التاريخ:

يمكـن القـول بصـورة عامـة أن التاريـخ يهتـم بمـاضي الانسـان، ولكـن إلى أي مـدى يكـون ذلـك الاهتمـام؟ اختلـف المؤرخـون في ذلـك، فمنهـم مـن قـال بـأن التاريـخ هـو رصـد الاحـداث الماضيـة كمـا هـي، أي تدونهـا فقـط كأحـداث. ومنهـم مـن قـال بـأن التاريـخ يتعـدى ذلـك إلى فهـم تلـك الأحـداث. لكـن الـرأي السـائد الآن أن التاريـخ لا ينحـصر عـلى تدويـن أحـداث المـاضي فقـط بـل لا بـد مـن تحليـل ودراسـة تلـك الأحـداث. وقـد قـال بذلـك كثـير مـن مؤرخـي الـتراث الاسـلامي مثـل ابـن خلـدون وغيرهـم، وهـم بذلـك يوضحـون وجهـة النظـر الاسـلامية التـي جـاء بهـا القـرآن والتـي تقـول بـضرورة دراسـة التاريـخ وفهمـه مـن أجـل الاعتبـار بأحداثـه وأخـذ الـدروس منـه.

ولأن التاريـخ يهتـم بـكل أحـداث المـاضي التـي تتعلـق بأوضـاع واسـعة ومتشـعبة في حيـاة البـشر كان مـن الصعـب تحديـد تعريـف واحـد شـامل ووافي لعلـم التاريـخ. وقـد أعطـى الدارسـون المعـاصرون تعريفـات شـتى لعلـم التاريـخ تنصـب كلهـا في دراسـة وتحليـل وتفسـير أحـداث المـاضي بغيـة التعـرف عـلى كل أوضـاع حيـاة الانسـان الماضيـة في شـتى مرافقهـا، لكـي تسـاعد تلـك المعرفـة في فهـم واقعنـا المعـاصر فهمـاً وافيـا يمكننـا مـن الرؤيـة الفاحصـة والتخطيـط السـليم للمسـتقبل. وفيمـا يـلي نمـاذج لبعـض تلـك التعاريـف.

التاريخ هو:

- وصف وسرد كل أحداث الماضي
- كل التراث البشري أو كل ما أنجزه البشر خلال مسيرتهم
- سرد الأحداث حسب ترتيبها بأسبابها وتأثيراتها،
- تواصل الأحداث المتتالي من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل
- تسجيل وتفسير أحداث الماضي المتصلة بالإنسان
- إعادة تصوير الحياة الماضية والتعرف على النشاط الفكري للإنسان وتتبع مراحل تطوره
- علم دراسة الوثائق:

يلاحظ أن هذه التعاريف تتناول سرد ووصف أحداث الماضي مع الاشارة إلى أسبابها ونتائجها. وقد توقف المؤرخون كثيراً مع أحداث الماضي وكيفية التعامل معها بدءاً من مصداقيتها ومنهج كتابتها. هل تدون كما هي دون تدخل من المؤرخ أم ينبغي على المؤرخ شرحها وتعليلها؟ وكيف يتم ذلك؟ وهذا ميدان واسع من فروع علم التاريخ يندرج تحت فلسفة التاريخ ومناهج البحث فيه.

وما نود الاشارة إليه هنا هو أن الأحداث التاريخية ليست تاريخاً. فعندما نقول أن الحرب العالمية الثانية نشبت عام 1939 وحقق السودان استقلاله عام 1956 وغزت جيوش محمد على باشا السودان عام 1820 لا نعتبر ذلك تاريخاً بل مادة تاريخية، وتصبح تاريخاً عندما يشرع المؤرخ في البحث عن أسباب ونتائج تلك الأحداث، وكيف حقق السودان استقلاله وما ترتب على ذلك من تحولات، وكيف ولماذا غزا محمد علي السودان.

فأحداث التاريخ أو المادة التاريخية هي بمثابة المعمل للمؤرخ. فالمعمل في كلية العلوم مثلاً يحتوي على مواد ومحاليل وأدوات يدرس فيه الدارسين الأحياء والكيمياء والفيزيا. فالمعمل ليس كيمياء أو أحياء ولكن عندما يستخدم الدارسين المادة الموجودة في المعمل يدرسون الأحياء أو الكيمياء. وكذلك المؤرخ فالآثار وغيرها من المواد التاريخية ليست تاريخاً، وتصبح تاريخاً عندما يشرع المؤرخ في دراستها.

وقد ساهم بعض مؤرخي التراث الاسلامي في تعريف التاريخ. فعرفه السخاوي التاريخ بأنه: «الإعلام بالوقت، يقال أرخت الكتاب وورخته أي بينت وقت

كتابتـه» ويضيـف أن التاريـخ هـو « التعريـف بالوقـت الـذي تضبـط بـه الأحـوال» ونقـل عـن الصـولي « تاريـخ كل شـئ بدايتـه ووقتـه الـذي ينتهـي إليـه»[1] ، عـرف القنوجـي التاريـخ بأنـه: «تعيـين وقـت لينسـب إليـه زمـان يأتـي عليـه أو مطلقـا يعنـي سـواء كان ماضيـا أو مسـتقبلا»[2] وذكـر الكافيجـي أن: «التاريـخ علـم يبحـث فيـه عـن الزمـان وأحوالـه وعـن أحـوال مـن يتعلـق بـه مـن حيـث تعيـين ذلـك وتوقيتـه.»[3]

ولا يعنـى ارتبـاط الحـوادث بأوقـات وقوعهـا عنـد مفكـري الاسـلام المبكريـن أن مفهومهـم للتاريـخ كان ضيقـاً ومنحـصراً فقـط في تعيـين الوقـت، فقـد كان مفهـوم مؤلفـي الـتراث واسـعاً تعـدى ارتبـاط تحديـد زمـن الحـدث فقـط. ويمكـن رؤيـة ذلـك بوضـوح في:

أ. اسـتخدام أولئـك المؤرخـون ألفاظـاً أخـري - مثـل قصـة وخـبر ونبـأ - لتـدل على دراسـة المـاضي وفهمـه والتبـصر فيـه وليـس فقـط إثبـات زمـن وقوعـه. بـل وان جـل تلـك الحـوادث دونـت دون ذكـرِ لتواريـخ وقوعهـا مثـل الأحـداث المتعلقـة بتاريـخ مـا قبـل الاسـلام كمـا في تاريـخ اليعقوبـي وتاريـخ الطـبري.

ب. كان مفهـوم التاريـخ الواسـع واضحـاً في تعريـف ابـن خلـدون للتاريـخ الـذي جـاء فيـه: «التاريـخ مـن الفنـون التـي تتداولهـا الأمـم والأجيـال ... هـو في ظاهـره لا يزيـد عـن إخبـار عـن الأيـام والـدول والسـوابق مـن القـرون الأول ... وفي باطنـه نظـر وتحقيـق، وتعليـل للكائنـات ومباديهـا دقيـق»[4]

ت. التعريفـات التـي أتـت فيهـا الحـوادث مرتبطـة بزمانهـا لـم تكـن الغايـة مـن ذكـر تلـك الأحـداث ربطهـا بزمـن وقوعهـا بـل كانـت الغايـات متعـددة عـلى رأسـها التبـصر في أحـداث المـاضي وأخـذ العـبرة والعظـة منهـا. كمـا في قولـه تعـالى {لقـد كان في قصصهـم عـبرة لأولي الألباب}يوسـف: 111. وكمـا جـاء بعـد ذكـر أحـداث فرعـون وعصيانـه ومـا آل إليـه أمـره {إن في ذلـك لعـبرة لمـن يخشى}النازعـات: 26.

(1) السخاوي ص -14 17.

(2) القنوجي، أبجد العلوم ج 2 ص 137.

(3) الكافيجي، المختصر في علم التاريخ مخطوط، القاهرة: دار الكتب المصرية رقم 528 تاريخ ص 16.

(4) ابن خلدون، المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي القاهرة: لجنة البيان 1957 ج 1 ص 208 – 209.

2

موضوع علم التاريخ وأقسامه

موضـوع علـم التاريـخ هـو مـاضي الانسـان، أي كل مـا يتعلـق بأحـداث ماضيـه، وهـو بذلـك يتنـاول كل أوجـه حيـاة الانسـان في جميـع نواحيهـا. دعنـا نتصـور – عـلى سـبيل المثـال – حياتنـا في السـودان في السـنوات القليلـة الماضيـة ومـا فيهـا مـن أحـداث سياسـية واقتصاديـة واجتماعيـة وثقافيـة. فالنظـر إلى الحـزب الحاكـم وانشـقاقه ومواقـف أحـزاب المعارضـة وحـرب الجنـوب واتفاقيـة نيفاشـا وقضايـا دارفـور والمؤتمـرات التـي انعقـدت بصددهـا والموقـف العالمـي ومحكمـة الجنايـات الدوليـة.

هـذه نمـاذج مـن الأحـداث السياسـية فقـط، ولـو عرجنـا إلى الأحـداث الأخـرى مـن سياسـات مركزيـة واقليميـة وتوسـع زراعـي وسـدود ومنشـآت أخـرى واسـتخراج البـترول ومـا صاحبـه مـن اتفاقيـات داخليـة وخارجيـة وتسـويقه وغـير ذلـك. ولـو نظرنـا إلى الجوانـب الثقافيـة والاجتماعيـة لرصدنـا آلاف الأحـداث الهامـة والسياسـات والأفـكار والأوضـاع الداخليـة والخارجيـة التـي أثـرت عـلى مسـار تلـك الأحـداث.

ولنفـترض أننـا الآن في عـام 2509 أي بعـد مـضي 500 عـام، فـكل مـا حـدث في السـنوات القليلـة أصبـح بعـد مـضي خمسـمائة عـام موضوعـاً للتاريـخ. ولذلـك نقـول موضـوع علـم التاريـخ هـو نشـاط البـشر في ماضيـه في كل المرافـق بسـلبياته وايجابياتـه بمنجزاتـه واخفاقاتـه. فعلـم التاريـخ يـدرس موضوعـاً واسـعاً متشـعباً يغطـي جميـع نشـاطات المـاضي التـي سـاهمت في صياغـة الحـاضر.

لكـن موضـوع علـم التاريـخ لـم يكـن بهـذا التوسـع والشـمول في العصـور السـالفة، فقـد كان موضـوع علـم التاريـخ منحـصراً في الحضـارات القديمـة في أعمـال ومنجزات الملـوك والقـادة المحليـين، وتوسـع قليـلاً بعـد ظهـور الديانتـين اليهوديـة والمسـيحية.

غـير أن علـم التاريـخ تعثـر في أوربـا في عـصر الاقطـاع حيـث هيمنـت الكنيسـة عـلى الحيـاة الفكريـة والثقافيـة في أوربـا في ذلـك الوقـت.

رأت الكنيسـة أن التاريـخ ينبغـي فقـط أن يتنـاول مـا أتـى في الكتـاب المقـدس وهـي المـادة التـي تـروي أحـداث المسـيحية المبكـرة وسـير الآبـاء والقـادة الروحانيـين، أي أن الكنيسـة حـصرت موضـوع التاريـخ فيمـا يتعلـق بالحيـاة في العالـم الأخـر ودراسـة كل مـا يسـاعد الانسـان عـلى أخـذ العظـة والعـبرة التي تسـاعده للاسـتعداد لمـا بعـد المـوت. أمـا الحيـاة في هـذا العالـم فهـي لا تسـتحق العمـل ولا يجـب الانتبـاه إليهـا وذلـك وفقـاً لمفهـوم خطيئـة آدم وكيـف أن المسـيح قـدم روحـه فـداءً لتلـك الخطيئـة، وينبغـي عـلي المسـيحيين العمـل عـلى الخـلاص وتكريـس حياتهـم كلهـا لهـذه الغايـة.

ولـم يتغـير هـذا المفهـوم إلا مـع مطلـع العـصر الحديـث في أوربـا وبعـد حـركات الاصـلاح الدينـي ورفـض أغلـب الأوربيـين آراء وتعاليـم الكنيسـة وبـدأوا يبحثـون في تاريـخ المجتمعـات القديمـة وقسـموا التاريـخ إلي قسـمين، تاريـخ كنـسي متعلـق موضوعـه بمـا تضمنـه الكتـاب المقـدس ومـا يسـاعد عـلي الاسـتعداد للعالـم الآخـر، وتاريـخ علمانـي يهتـم موضوعـه بشـؤون الحيـاة الدنيـا ويسـاعد عـلى فهـم طبيعـة المجتمعـات للعمـل عـلى ترقيتهـا. وبالتدريـج تطـور هـذا المفهـوم وتطـور معـه موضـوع علـم التاريـخ في العـصر الأوربـي الحديـث.

وقـد رأينـا كيـف أن التوسـع الكبـير في موضـوع علـم التاريـخ أتى عـلى أيـدي الأجيال المبكـرة مـن مؤرخـي المسـلمين. فجـاء موضـوع علـم التاريـخ عندهـم غنياً وشـاملاً، وهـو تقريبـاً نفـس مفهـوم موضـوع علـم التاريـخ المعـاصر. ويرجـع السـبب الرئيـس في شـمولية وغـزارة موضـوع علـم التاريـخ – كمـا ذكرنـا - إلي مـا ورد مـن تاريـخ في القـرآن الكريـم. فـإذا ألقينـا نظـرة سريعـة إلى موضـوع التاريـخ في القـرآن الكريـم نجـده تضمـن مـادة عـن الأوضـاع السياسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة والثقافيـة كمـا سـنوضح ذلـك لاحقـاً.

وهكـذا جـاء موضـوع علـم التاريـخ واسـعاً وحاويـاً لأحـداث المـاضي مـن أوضـاع سياسـية واقتصاديـة واجتماعيـة وثقافيـة، فوجـد المسـلمون أن موضـوع علـم التاريخ في القـرآن الكريـم أوسـع وأغـزر مـن موضوعـه المحـدود في العالـم القديـم. فبـدأ المؤرخـون يسـيرون عـلى هـدي القـرآن الكريـم ، فلـم تنحـصر أعمالهـم عـلى تدويـن الأحـداث المتعلقـة بالحـكام والقـادة فقـط.

ويمكن النظر إلى بعض النماذج من كتابات مؤلفي التراث لألقاء نظرة إلى فهمهم لموضوع علم التاريخ. قال حاجي خليفة: « وموضوعه : أحوال الأشخاص الماضية من :»الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية.» وأضاف حاجي خليفة مسنداً موضوع التاريخ: «إلى أول حدوث أمر شائع من ظهور ملة أو دولة أو أمر هائل من الآثار العلوية والحوادث السفلية مما يندر وقوعه جعل ذلك مبدأ لمعرفة ما بينه وبين أوقات الحوادث والأمور التي يجب ضبط أوقاتها في مستأنف السنين.»[1]

وجاء عند السخاوي: «أما موضوعه فالإنسان والزمان ووسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان في الزمان.» ويضيف السخاوي مفصلاً موضوعات علم التاريخ: «وفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملة وتجديد فرض وخليفه ووزير وغزوه وملحمة وخرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدأ الخلق ، وقصص الأنبياء وغير ذلك من أمور الأمم الماضية... أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع ومشاهد، أو خفي سماوي كجراد وخسوف وكسوف أو أرضي كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام.»[2]

فإذا قارنا الحقل الذي يعمل فيه علم التاريخ بحقول علوم الانسان الأخرى وجدنا فرقاً كبيرة. فعلوم الانسان الأخرى تهتم بجزء محدد من حاضر الانسان. فعلم النفس مثلاً يهتم بسلوك البشر وما يؤثر عليه من تفاعلات داخلية وخارجية وما يترتب على ذلك، وعلم الاجتماع يهتم بدور وعلاقة الفرد بالمجتمع وما يتعلق بأوضاع المجتمعات والمؤسسات الاجتماعية، وعلم الاقتصاد يهتم بنشاطات وسلوك البشر الاقتصادية وما يوجهها ويتحكم فيها وانعكاسات ذلك على حياة البشر. وهكذا فإن فروع علم الانسان – ما عدا التاريخ – تهتم بدراسة شريحة محددة من حاضر الانسان، أما علم التاريخ فيهتم

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون ج 1 ص 271.

(2) السخاوي: الاعلان بالتوبيخ ص 17.

ويـدرس كل مـا يتعلـق بمـاضي الانسـان مـن جميـع جوانبـه النفسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسـية وغيرهـا.

ورغـم أن التاريـخ يهتـم بمـاضي الانسـان إلا أن للتاريـخ حضـور واضـح في حياتنـا الحـاضرة، وفي واقـع الأمـر فـان التاريـخ يدخـل في دارسـة كل مجـالات المعرفـة مـا تعلـق منهـا بعلـوم الطبيعـة أو مـا تعلـق بعلـوم الانسـان، ربمـا لا نلاحـظ ذلـك ولكـن الرجـوع للتاريـخ في كل مجـالات المعرفـة أمـر لا بـد منـه. فالطبيـب مثـلاً لا يكتمـل تشـخيصه للمريـض مـا لـم يرجـع إلى مـاضي المريـض متـى بـدأت الأعـراض وكيـف كان اسـتمرارها، ولا بـد مـن البحـث عـن تاريـخ الأسرة ربمـا جيـل أو جيلـين، وهـل هنالـك أثـر وراثـي؟ ويقيـد الطبيـب هـذه المعلومـات تحـت اسـم المريـض فتصبـح ملازمـة لملفـه وفي أي وقـت اسـتدعت الحالـة النظـر في أمـر المريض لا بـد أولاً مـن الرجـوع لتاريـخ المريـض.

ولا بـد للمحامـي مـن السـوابق القضائيـة ولا بـد لرجـل الأعمـال مـن دراسـة مـاضي السـوق وحركتـه لكـي يتمكـن مـن اتخـاذ القـرار المناسـب، ولكـي يتعـرف دارسي العلـوم الطبيعيـة بـكل فروعهـا عـلى أوضـاع علومهـم المعـاصرة وتطورهـا لا بـد مـن الرجـوع لدراسـة تاريخهـا. وهكـذا فالتاريـخ رغـم اهتمامـه ودراسـته للمـاضي فهـو حـاضر في كل دراسـات حـاضر الانسـان.

وبنـاءاً عـلى هـذا الموضـوع الشـامل لعلـم التاريـخ تشـعبت الحقـول التـي يدرسـها، فهـي تغطـي كل النشـاط البـشري في مجالاتـه السياسـية والعسـكرية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة. ولذلـك تعـددت أيضـاً أقسـام علـم التاريـخ، فأقسـام علـم التاريـخ تغطـي كل الميادين السـابقة. فهنالـك مثـلاً: التاريـخ السـياسي والتاريـخ العسـكري والتاريـخ الدبلومـاسي والتاريـخ الاقتصـادي والتاريـخ الاجتماعـي والتاريخ الثقـافي وتاريـخ الفنـون وتاريـخ الأديـان وتاريـخ العلـوم مثـل تاريـخ الأدب وتاريـخ الرياضيـات.

3

أهمية دراسة علم التاريخ

يقسم الغربيون المعرفة إلى علوم متعلقة بالطبيعة وأخرى متعلقة بالإنسان، وأهم وظيفة للعلوم الانسانية هي الاستثمار في عالم الانسان، فالإنسان يقود عملية التنمية والتطور ويوظف كل الموارد الأخرى لتحسين أوضاع الحياة وبناء المستقبل. فالموارد الطبيعية مهما توفرت وتنوعت إذا لم تجد التوظيف السليم لا تثمر، والتوظيف السليم للموارد يتأتى بالتأهيل والإعداد الذي يتم عبر العلوم الانسانية التي يمثل التاريخ محورها، فهو بمثابة الأب لعلوم الانسان.

فلو لم يؤهل الانسان انهارت كل مشاريع البناء، صحيح قد نحتاج إلي عدد أكبر من المتخصصين في العلوم الطبيعية ولكن لابد من التركيز على تأهيل الكوادر في علوم الانسان. فالعرب مثلاً يملكون ثروة استراتيجية ضخمة وهامة، كيف يوظف العرب هذه الثروة؟ في الواقع الذين يوظفون تلك الثروة ويستخرجونها هم الغربيون الذين تأهلوا وتدربوا لهذا العمل.

أما الانسان العربي فهو كالآلة التي تستخدم الوقود بعيداً كل البعد عن استخراج وتوظيف ثروته، لم يتم تأهيله لذلك. ورغم تدفق أموال هذه الثروة في بلادهم إلا أنهم بمثابة الأغراب أو الأجانب فيما يتعلق بثروتهم. فلو تم تأهيل الانسان العربي لتغير توظيف هذه الثروة ولتغير وجه الحياة في الأقطار العربية ولأصبحوا قوة لها دورها ومكانتها في الساحة الدولية.

ودراسة التاريخ تمثل عنصراً هاماً وفاعلاً في تأهيل الانسان . فهي تساهم مساهمة كبيرة في بناء شخصية الفرد وتكوينه الوجداني والنفسي، وكلما شعر الفرد أن أسلافه لهم ماضٍ عريق ضارب في عمق الزمن وخلفوا الكثير من المنجزات الماثلة أمام عينيه أو لو تعرف على ما قدم أجداده من خبرات

تناقلتها الأجيال وساهمت في تطوير مرافق الحياة وتقدم البشر، كلما أحس بالفخر والعزة وقوة الشخصية ولتفاعل إيجابياً في مجتمعه مما يدفعه لمواصلة ذلك الجهد والإضافة إليه.

فالتاريخ يربط الفرد بماضيه ويساعده على تكوين شخصيته المتكاملة المتزنة. فعلى سبيل المثال نحن في السودان الآن نعاني من مشكلة حادة وهي مشكلة الهوية، يربط البعض جذوره بالشمال وبعضهم بالشرق والبعض الآخر بالغرب، وينتسب البعض إلى الافريقية والآخر إلى العربية والحامية، والكل لا يقطع في الأمر برأي شافٍ. لماذا لأننا مبتورون ومنفصلين عن ماضينا، نتخبط في البحث عن الهوية أحياناً في الداخل وأحياناً في الخارج. ولو رجعنا إلي التاريخ لوجدنا الهُدى، ومشكلتنا أن صفحات تاريخنا وبخاصة منذ سقوط دولة مروي وحتى سقوط مملكة سنار تحتاج إلى المزيد من الاهتمام والبحث.

فالتاريخ يربط خبرة وتجارب الماضي بأوضاع الحاضر مما يمكننا من فهم واقعنا المعاصر فهماً سليماً، وإذا ما تم ذلك أمكن التخطيط السليم للمستقبل. فدراسة التاريخ تنمي في الفرد ملكة النقد البَنّاء والتفكير النافذ وتقييم وقياس الأمور بأكثر من مقياس حتى يطمأن لما يقدم إليه ويقبله بميزان العقل. ودراسة التاريخ تمكننا من فهم واقعنا فهما سليماً وتعصمنا من أن نكون عرضة للتضليل أو الاستغلال، لأن دراسة التاريخ تعلمنا وزن الأشياء بموازين العقل وعدم تقبلها قبولاً ساذجاً.

ودراسة التاريخ من زاوية أخرى تمكننا من الفهم السليم والواعي لكل ما نتعامل معه في حياتنا اليومية. فعلى سبيل المثال يمكننا أن نسأل عن وحدات الزمن التى نسير عليها الآن مثل الأسبوع وأسماء أيامه والشهر والسنة، كيف بدأت وتحددت أيامها وأطوالها؟ ومتى؟ الخبز الذي نأكله كيف بدأت زراعة حبوبه؟ ومن قام بذلك أولاً ومتى؟ وكيف توصل إلي تلك المعرفة؟ كل ما نتعامل معه في حياتنا له ماضٍ، ومعرفة ذلك الماضي ليست فقط من أجل حب الاستطلاع بل ضرورية لتطوير حياتنا وتحسين أساليبها لأننا لا نستطيع تطوير أي شيء دون معرفة كيف بدأ وكيف كانت مراحل تكوينه؟

فالغرض العام من التعرف على أحوال الماضي ليس من أجل المعرفة فقط بل من أجل الكثير من الأسباب الأخرى، لعل من أهمها – من وجهة النظر الاسلامية - كما في القرآن الكريم الاستفادة من تجارب وخبرات الماضي

في حياتنا الحاضرة، وعدم تكرار الأخطاء، فخبرة الماضي ينبغي أن تتصل بالحاضر لتساعدنا على فهمه فهما يمكن من التخطيط السليم للمستقبل. فدراسة التاريخ تربط الماضي بالحاضر والمستقبل.

ويقول المؤرخون أن الأمة التي لا تعي تجاربها الماضية تعتبر كالشخص الناضج الذي فقد ذاكرته، فعليه أن يبدأ حياته من الصفر. أي يبدأ في تعلم كل شيء من البداية لانفصاله كلية من التجارب التي اكتسبها خلال حياته. فالأمة التي لا تهتم بتاريخها وبتجاربها الماضية تبدأ حياتها دون خبرات ذلك الماضي فتقوم بتقليد أو الاستفادة من تجارب الآخرين الأمر الذي يؤدي إلى اضطرابات في بُنى تلك المجتمعات ويعرقل كل مرافق التخطيط للبناء السليم مما يعوق تطور واستقرار تلك المجتمعات.

وميادين فوائد دراسة التاريخ واسعة ومتعددة، فعلى سبيل المثال نتلمس ما قاله بعض مفكري الاسلام في هذا الصدد. يقول حاجي خليفة أن الغرض من دراسة التاريخ هو:

«الوقوف على الأحوال الماضية والعبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار ويستجلب نظائرها من المنافع ... وفائدته : العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار ويستجلب نظائرها من المنافع «[1]

ويرى السخاوي أن فائدة علم التاريخ هي:

«معرفة الأمور على وجهها، من فوائده يعلم به النسخ في أحد الخبرين التعارضين ... كونه أحد الطرق التي يعلم بها الغلط في المتفقين (في الأسماء) بإضافة ما لواحد إلى آخر حيث أحدهما يكون قد ولد بعد موت الآخر... كون التاريخ أحد الأدلة لضبط الراوي حيث يقول في المروي. لأن فيه أخبار الأنبياء والعلماء والحكماء فهو عظيم الغناء ظاهر النفع فيما يُصلح به الانسان ... أمر دينه ... وأمر معاملاته ومعاشه الدنيوي. لأن فيه أخبار الملوك وسياساتهم وأسباب ومبادئ الدول وانقراضها ... وتدبير الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال فهو غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون ج 1 ص 271

عـاش الدهـر كلـه وجـرب الأمـور بأسرهـا وبـاشر تلـك الأحـوال فوائـده الأخرويـة. [1]

ونختتـم حديثنـا بمقارنـة الغـرض مـن دراسـة التاريـخ عنـد المسـلمين والغربيـين. وكمـا ذكرنـا فـإن مـن أهـم أهـداف دراسـة التاريـخ عنـد المسـلمين هـي التبـصر في أحـداث المـاضي مـن أجـل العـبرة والعظـة، ورؤيـة إلى أي مـدي التـزم البـشر بسـنن وقوانـين اللـه في الحيـاة، هـل اتبعوهـا أم لا؟ ومـاذا كانـت النتائـج في كل الأحـوال؟

فمـن سـنن اللـه في حيـاة البـشر مثـلاً الوقـوف بصرامـة أمـام اسـتغلال الانسـان لأخيـه الانسـان، ويمكـن أن نأخـذ تحريـم الربـا والقسـط في الكيـل والميـزان كمثـال لذلـك. فالقـرآن وضـح لنـا مـاذا كان مصـير الشـعوب التـي لـم تلتـزم بهـذه القاعدة وكيـف تعرضـت للهـلاك فعلينـا أخـذ العـبرة مـن ذلـك. يقـول اللـه تعـالي عـن بنـي اسرائيـل: ﴿ وَأَخْذِهِـمُ الرِّبَـا وَقَـدْ نُهُـوا عَنْـهُ وَأَكْلِهِـمْ أَمْـوَالَ النَّـاسِ بِالْبَاطِـلِ وَأَعْتَدْنَـا لِلْكَافِرِيـنَ مِنْهُـمْ عَذَابًـا أَلِيمًـا (161) }﴾[2] وكيـف كان مصـير قـوم شـعيب لمـا خالفوا سـنن اللـه في معاملاتهـم التجاريـة ولـم يسـتجيبوا لنـداء نبيهـم شـعيب الـذي قـال لهـم: ﴿ وَأَوْفُـوا الْكَيْـلَ وَالْمِيـزَانَ بِالْقِسْـطِ لا نُكَلِّـفُ نَفْسًـا إِلا وُسْـعَهَا ﴾[3] وكانـت عاقبتهـم كمـا ورد في الآيـة: ﴿ خَذَتْهُـمُ الرَّجْفَـةُ فَأَصْبَحُـوا فِي دَارِهِـمْ جَاثِمِـينَ[4]﴾

فالآيتـان توضحـان أن هنالـك سـنناً في الحيـاة ينبغـي الالتـزام بهـا، ويتضـح في نفـس الوقـت النتائـج التـي تترتـب عـلى العمـل خـلاف ذلـك. فغـرض التاريـخ هنـا التبـصر في الالتـزام أو عدمـه بالقوانـين والنتائـج المترتبـة عليـه.

أمـا في الغـرب فالهـدف مـن دراسـة التاريـخ هـو التبـصر في أحـداث المـاضي مـن أجـل البحـث عـن القوانـين الطبيعيـة التـي تسـير هـذا الكـون وتتحكـم في حياتنـا. فأغلـب الغربيـون يؤمنـون بالقانـون الطبيعـي في الكـون ولا يـرون أن هنالـك أي قـوة خـارج الطبيعـة تؤثـر عـلى الحيـاة، أي لا تأثـير للآلهـة عـلى الكـون.

وكمـا أن هنالـك قوانـين طبيعيـة في الكـون توجهـه وتحافـظ عـلى العلاقـات في عالـم الطبيعـة، والتعـرف عـلى تلـك القوانـين يمكـن الانسـان مـن توظيـف عالـم الطبيعـة لخدمـة الانسـان وتطويـر مرافـق حياتـه، فقـد رأى الغربيـون ضرورة البحـث عـن تلـك القوانـين الطبيعيـة في حيـاة الأنسـان عـن طريـق دراسـة المـاضي دراسـة دقيقـة

(1) السخاوي، الاعلان بالتوبيخ ص 14و17 و24 و29.

(2) النساء: 161.

(3) هود : 85.

(4) التوبة: 78.

ومتأنيــة. والتعــرف عــلي تلــك القوانــين الطبيعيــة يســاعد عــلى فهــم حيــاة الإنســان الحــاضرة بــكل نواحيهــا الاجتماعيــة والسياســية والاقتصاديــة الأمــر الــذي يمكــن مــن تطويــر تلــك الحيــاة والتخطيــط الســليم للمســتقبل. فهــدف دراســة التاريــخ في الغــرب الكشــف والتعــرف عــلى القوانــين الطبيعيــة، بينمــا هدفهــا عنــد المســلمين رؤيــة مــا إذا كان البــشر قــد طبقــوا قوانــين اللــه في حياتهــم أم لا؟ وكيــف كانــت النتائــج؟

4

كيف ندرس التاريخ

أظن أن الإجابة السريعة على ذلك هي أننا ندرس التاريخ بقراءة ما كتب عن الموضوع الذي نود دراسته. وإذا كُلِّف الدارس ببحث أو كتابة موضوع عن التاريخ يذهب إلى المكتبة ويضع الكتب المتعلقة بالموضوع أمامه ثم يقرأ ويكتب ما طُلِب منه. هذا هو المفهوم العام للإجابة على سؤالنا كيف ندرس التاريخ؟

أما إذا تفحصنا السؤال كمؤرخين أو دارسي تاريخ نجد أن الإجابة تتطرق إلى الكثير من الجوانب التي ينبغي على دارس التاريخ التعرف عليها ومراعاتها. فدراسة وكتابة التاريخ تتطلب اتباع قواعد وأسس معينة تتمثل فيما يعرف بمناهج البحث في علم التاريخ. وكلما تقدم الدارس في مجال الدراسة كلما تزود بالمعلومات الأساسية في هذا الجانب. وسنشير هنا فقط إلى أهم تلك القواعد التي ينبغي على الدارس وهو في أول السلم التعرف عليها.

يقوم التاريخ على ركنين أساسين هما: -1 المادة التاريخية و-2 المؤرخ. ودارس التاريخ ينبغي عليه التعرف على الكثير من القواعد والضوابط المتعلقة بهذين الجانبين. ولعل أهم ما ينبغي التعرف عليه في الجانب الأول هو أين نجد المادة التاريخية لما نود دراسته؟ والإجابة المباشرة هي أننا نجد المادة التاريخية في المصادر والمراجع. ولكن علينا معرفه ماهي المصادر والمراجع؟ وأين نجدها؟ وكيف نقرأها ونأخذ أو نكتب المعلومات منها؟ وكيف نتعامل مع المادة التي جمعناها؟ وهل هنالك طرق وقواعد محددة للتأكد من مصداقيتها؟

العثور على مصادر تمكن من التعرف على أحداث تاريخ البشر في حقبه المبكرة عملية صعبة تعوقها العديد من العقبات. فالمصادر المتعلقة بتلك

الحقب المبكرة من تاريخ البشرية غير متوفرة إن لم تكن معدومة، وفي كثير من الأحيان يقوم الباحثون بتتبع حياة بعض الشعوب المعاصرة التي لم تأخذ بأساليب الحياة الحديثة في مناطقها المنعزلة والتي يطلق عليها الشعوب المتخلفة أو البدائية، ويكثفون من دراسة أوضاعها المعيشية والاجتماعية والفكرية كي تساعدهم على تكوين فكرة عن كيف كانت حياة الشعوب القديمة في تاريخها المبكر قبل أن تدخل ميادين الحضارة. وهذا المنهج قد لا يأتي بنتائج مقبولة كما يرى بعض الباحثين.

فالمصدر هو المادة التاريخية المتصلة بالحدث مباشرة سواء كانت عملاً مكتوباً أو مخلفات مادية والمرجع هو العمل التاريخي الذي اعتمد في مادته على المصادر. وتختلف المصادر باختلاف حقب التاريخ، فمصادر التاريخ القديم تختلف عن مصادر التاريخ الاسلامي والوسيط ويختلف كل ذلك عن مصادر التاريخ الحديث.

فالمادة المكتوبة المتوفرة التي خلفتها الشعوب القديمة والتي تساعد على دراسة تاريخها ترجع إلى زمن قريب لا يزيد عن ست ألف سنة وهو زمن قليل جدا من مسيرة تاريخ الإنسان لو افترضنا أن بدايته كانت قبل نحو 40 ألف سنة وهو عمر أقدم هيكل للإنسان بتكوينه الحالي تم العثور عليه حتى الآن، ناهيك عن مئات آلاف السنين من عمر الانسان كما يفترضه من يُرجعون أصل الإنسان إلى التطور في عالم الطبيعة. ورغم ذلك يوجد كمّاً هائلاً من المادة المكتوبة والمخلفات الآثارية التي مكنت الباحثين من التعرف علي حياة الانسان المبكرة، وتزداد تلك المادة غزارة وتنوع كلما اقتربنا من عصورنا الحديثة.

ولذلك فمصادر التاريخ متعددة ومتنوعة، ويمكن القول بصورة عامة أن أيّ شيء خلفه الانسان إذا كان أثراً مادياً مثل المعابد والتماثيل والنقوش والرسوم المختلقة والهياكل العظمية والأدوات التي استخدمها في حروبه أو صيده أو طهي طعامه أو مسكنه تمثل كماً هائلاً من المصادر التي يتم دراستها وفقاً لمناهج محددة واستخلاص المعلومات عنها.

وإلى جانب ذلك يوجد أيضاً كماً هائلاً من المادة المكتوبة بمختلف اللغات مثل اللغة المصرية القديمة وكتابات العراق القديم (المسمارية) ولغة إيران القدية (الفارسية) ولغة الهند القديمة (السانسكريتية) واللغة اليونانية القديمة

واللغة اللاتينية واللغة المروية واللغة العربية واللغة العثمانية إلي جانب اللغات الأخري المستخدمة اليوم. فالكتابات الموجودة بتلك اللغات تعتبر مصادراً أولية للحقب والفترات الزمنية والموضوعات التي عاصرتها.

فالذي يود الكتابة في التاريخ الاسلامي مثلاً يجد كمّاً هائلاً من المصادر المكتوبة التي خلفها المؤلفون المبكرون خلال أكثر من عشر قرون. ولم تقتصر تلك المادة على التاريخ السياسي فقط والذي يمثل كمّاً قليلاً إذا ما قورن بالكتابات التي تناولت الجوانب الأخرى من حياة المسلمين خلال تاريخهم الطويل. فقد تناولت تلك المؤلفات الجوانب الادارية والمالية والجغرافية وكتب الرحلات والكتب الأدبية والاقتصادية بما فيها الموارد بمختلف أنواعها والسياسات المالية والضريبية.

وهكذا وفر لنا مؤلفو التراث معلومات غزيرة وغنية طبع بعضها وحقق البعض الآخر ولا يزال جزءاً كبير من ذلك التراث مخطوطاً اهتمت بتبويبه وفهرسته الجامعات والمؤسسات والمعاهد المتخصصة مثل دور الكتب ومعاهد المخطوطات العربية. هذه المادة كتب جلها باللغة العربية إلى جانب ما هو مكتوب ببعض اللغات الهامة الأخرى مثل اللغة الفارسية واللغة العثمانية واللغة الأردية، وعلى الباحث في التاريخ الاسلامي ضرورة إجادة واحدة – على الأقل – من هذه اللغات. وإلى جانب هذه المادة المكتوبة يوجد كمّاً هائلا أيضاً من الآثار المادية مثل الآثار المعمارية والمنسوجات والمسكوكات.
والباحث في تاريخ العصور الوسطى الأوربية أو في التاريخ الحديث يحتاج إلى النظر في أنواع مختلفة من المصادر والمخلفات الكنسية والوثائق والأراشيف المتنوعة. وعلى الباحث في تاريخ العصور الوسطى ضرورة التزود باللغة اللاتينية، والدارس للتاريخ الحديث عليه الالمام بأحدي اللغات الأوربية.
ولكل نوع من تلك المصادر مناهج وطرق محددة لدراستها والاطمئنان على صحتها وبيان وسائل نقدها واستخلاص المعلومات الموثوق بها، ويعرف هذا العمل في مناهج البحث التاريخي بـ «تحقيق ونقد الأصول» للتحقق من صحة المصادر وكيفية التعامل معها من أجل التوصل إلى المعلومات ذات الدرجة العالية من الثقة. ورغم أن عمليات النقد والتحقيق هذه تتم اليوم على أيدي متخصصين أكفاء في مختلف المجالات – مثل التوصل إلى عمر المواد الأثرية في المعامل – إلا أنه من المطلوب أن يعرف الباحث في علم التاريخ من يقوم بذلك وكيف تتم تلك العمليات.

وإلى جانب المصادر هنالك ما يعرف بالمراجع، وهي الكتب والمؤلفات التي اعتمدت على المصادر الأساسية في جمع معلوماتها أو الكتب غير المعاصرة للأحداث التي كتبت عنها. فإذا كتب أحد أساتذة الجامعة مثلاً كتاباً عن التاريخ الأموي أو العباسي أو تاريخ مملكة الفونج فيكون هذا الكتاب مرجعاً لأن مؤلفه لم يكن معاصراً لتلك الحقب التي كتب عنها، وهو في كتابه قد رجع إلى مصادر متنوعة لجمع معلومات كتابه بالاضافة إلى اعتماده أيضاً على بعض المراجع.

ومن المتطلبات الضرورية التي ينبغي على الأساتذة تزويد الدارسين بها في مرحلة ما قبل الدراسات العليا للتعرف على المصادر التعامل مع (كتلوجات) المكتبات سواء معدة في كروت أو مبرمجة في الحاسوب، وما يتوفر من معلومات في المكتبات الإلكترونية ليتمكن الدارس من التعرف على كيفية البحث والوصول إلى المصادر والمراجع. وينبغي الإشارة هنا إلى أنه ينبغي على الدارس عند دخوله المكتبة أن يسأل العاملين في المكتبة عن أي شيء يود استيضاحه أو عن أي شيء لا يعرفه في المكتبة. فالعاملون في المكتبات ليست مهمتهم مراقبة الداخل والخارج أو تزويد المكتبة بالكتب فقط، فمن مهامهم الأساسية توجيه وخدمة مستخدمي المكتبة وتقديم كل المعلومات التي يطلبها الدارس فيما يتعلق بمحتويات المكتبة وكيفية التعرف والاطلاع عليها .

وهنالك جانب آخر هام ينبغي الانتباه إليه، ذلك هو المصطلحات الكثيرة التي تواجهنا في دراستنا للتاريخ. فمن الضروري التوقف مع المصطلحات الهامة للتعرف على دلالاتها وخلفياتها التاريخية والفكرية. مثل: عصور ما قبل التاريخ والعصور الحجرية والعصور التاريخية وعصر المعدن وعصر البرونز و الحديد والعصر الهليني أو الهلينستي.

وقد رأى البعض أن عصور ما قبل التاريخ ترجع إلى الفترات المبكرة من تاريخ البشر قبل معرفة الكتابة، واعتبروا أن التوصل لمعرفة الكتابة وبداية الانسان تدوين خبراته تمثل بداية التاريخ الحقيقي للإنسان، وأن ما قبل ذلك يعتبر مرحلة ما قبل التاريخ. ومن المعروف أن الانسان توصل إلي مرحلة الكتابة في نحو الستة ألف سنة الماضية فتكون العصور التاريخية للإنسان قد بدأت في نحو ذلك التاريخ.

ورأي آخـرون أن العصـور التاريخيـة تبـدأ عندمـا بـدأ الانسـان انتـاج طعامـه، أي عندمـا توصـل إلي معرفـة الزراعـة واسـتئناس الحيـوان. فالإنسـان قبـل ذلـك كان جامعـاً لغذائـه مثـل الحيوانـات تمامـاً، كان كل همـه الحصـول عـلى الطعـام يتحـرك ويجـول مـن مـكان إلى آخـر ليجـد مـا يسـد رمقـه.، ثـم بعـد ذلـك يبحـث عـن مـكان آمـن يرتـاح فيـه ليبـدأ الكـرة مـرة أخـرى عندمـا يشـعر بالجـوع. فلمـا عـرف الانسـان الزراعـة واسـتئناس الحيـوان أصبـح لديـه فائـض غـذاء أكثـر مـن حاجتـه اليوميـة، فاسـتقر الانسـان وأصبـح لديـه وقـت للتبـصر في مظاهـر الطبيعـة والـشروع في تحسـين أوضـاع حياتـه، وبـدأ بذلـك مشـواره الحضـاري ودخـل عصوره التاريخيـة. ويرجـع بعـص الدارسـين هـذه الخطـوة إلى نحـو عـشرة ألاف سـنة.

أمـا العصـور الحجريـة والتـي تمتـد إلى مـا يقـرب مـن ثلاثـة ملايـين سـنة فهـي في نظـر مـن يؤمـن بـأن الانسـان خلـق وتطـور في الطبيعـة مـواد حجريـة متنوعـة الأشـكال ومختلفـة في درجـة اتقـان صناعتهـا. وقـد افـترض هـؤلاء الباحثـون أن مخلوقـاً جديـداً انفصـل مـن عالـم القـردة قبـل مـا يقـرب مـن خمسـة ملايـين سـنة وبعـد تحـولات وطفـرات بيولوجيـة متعـددة ومتنوعـة تطـور إلى الانسـان الحـالي. وكان حجـم مـخ ذلـك المخلـوق في بدايـة تطـوره نحـو ثلـث حجـم مـخ الانسـان الحـالي. ولذلـك كانـت مداركـه محـدودة وبـدأ يتخـذ أدواتـه ممـا توفـره الطبيعـة مـن حولـه، وكان الحجـر هـو أهـم مـا اسـتخدمه طيلـة مسـيرته .

وبـدأ ذلـك المخلـوق – الجـد الأول للإنسـان عنـد مـن لا يؤمـن بخلـق آدم – اسـتخدام الحجـر في البدايـة بصورتـه التـي وجدهـا عليـه في الطبيعـة، ومـع ازديـاد حجـم مخـه وتطـور معارفـه بـدأ في تحسـين أدواتـه الحجريـة حتـى صنـع منهـا السـكين والفـأس وبعـض أدوات الفلاحـة والطعـام. وقـد قسـم الدارسـون مـا وجـدوه مـن تلـك المـواد بحسـن إتقـان صناعتهـا. فأطلقـوا عـلى المـواد الأكثـر بدائيـة – والتـي غطـت الجانـب الأكـبر مـن تاريـخ ذلـك الانسـان – العصـور الحجريـة القديمـة. وأطلقـوا عـلي المـواد الأكثـر إتقانـاً العصـور الحجريـة الحديثـة. وهـذا العـصر هـو السـابق مبـاشرة لدخـول الانسـان مرحلـة عصـوره التاريخيـة. وقـد اسـتمرت لزمـن بسـيط جـداً بالمقارنـة إلي العصـور الحجريـة القديمـة. أمـا المـادة الحجرية المتوسـطة الاتقـان بـين القديمـة والحديثـة فقـد أطلقـوا عليهـا العصـور الحجريـة الوسـيطة.

وقـد ارتبطـت بهـذه المصطلحـات في كتابتنـا للتاريـخ مصطلحـات أخـرى مثـل التاريـخ القديـم والحديـث والوسـيط، وعـصر البرونـز والحديـد وعـصر الاقطـاع.

وسـنتعرض لهـذه المصطلحـات عنـد دراسـتنا لتفسـير وتحقيـب التاريـخ. فالمفـترض في دارس التاريـخ التعـرف عـلى معانـي مثـل هـذه المصطلحـات ودلالاتهـا. وقـد يتفق الباحـث مـع مدلـول المصطلـح وقـد لا يتفـق معـه، ولكـن لا بـد مـن التعـرف عـلى ذلـك.

فلـو لـم يتعـرف الباحـث في علـم التاريـخ عـلى دلالات ومفاهيم مثـل تلـك المصطلحات قـد يكتـب تاريخـاً يتناقـض مـع مفاهيمـه ومسـلماته الفكريـة، أو قـد يأتـي مـا يكتبـه في التاريـخ تكـراراً ونقـلاً لأفـكار معينـة قُصِـد بهـا خدمـة هـدف أو قضيـة بعينهـا مهمـا كانـت شـهرة المصـدر أو المرجـع الـذي اعتمـد عليـه. وقـد يتفـق كاتـب التاريـخ مـع تلـك الأفـكار بعـد تدقيقـه في المـادة التـي يريـد اسـتخدامها فـلا يكـون حينئـذ منقـاداً أو مخدوعـاً بـل تكـون كتابتـه عـن قناعـة.

5

علم التاريخ عند المسلمين

بداية كتابة التاريخ عند المسلمين وتطورها:

بدأت اهتمامات المسلمين المبكرة بالتاريخ بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد بدأ صغار السن من أصحاب رسول الله ﷺ أمثال عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وأبان بن عثمان بن عفان يهتمون بالأحداث المبكرة للدعوة في مكة والمدينة وبسيرة الرسول ﷺ فبدأوا يدونون تلك الموضوعات منفصلة مثل تدوين أسماء المهاجرين الأوائل إلى الحبشة، وأسماء من اشتركوا في الغزوات المبكرة أو أسماء من استشهدوا فيها.

ولما بدأت رقعة الدولة الاسلامية في الاتساع منذ عصر الخلفاء الراشدين ودخلت بعض الشعوب غير العربية في الاسلام إزداد الاهتمام بالتعرف على حياة الرسول ﷺ وسيرته كاملة، كما بدأ الاهتمام بالتعرف علي أحداث الأجيال المبكرة من المسلمين. وعكف من تبقى من الجيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ وجيل التابعين في تدوين تلك الأحداث حتي توفرت مادة غزيرة غطت مراحل الدعوة والمراحل المبكرة من انتشار الاسلام في شبه الجزيرة العربية ودونت بصورة أساسية في المدينة التي كانت مقر أصحاب الرسول ﷺ الذين اشتركوا في تلك الأحداث. كما بدأ تدوين اخبار عن حروب الرسول ﷺ (الغزوات والسرايا) في شبه الجزيرة العربية وتدوين أخبار الفتوحات خارج شبه الجزيرة العربية. وكانت كل تلك المادة المجموعة عبارة عن معلومات عن أحداث مستقلة وليست مصاغة في قالب تاريخي، ويمكن أن نطلق عليها مادة تاريخية، وتعتبر هذه الخطوة المرحلة الأولي من مراحل بداية التدوين التاريخي، أي المرحلة التي تم فيها جمع المعلومات.

وتبدأ المرحلة التالية بصياغة تلك المعلومات في صورة سيرة متكاملة لحياة الرسول ﷺ وغزواته، ثم تدوين سيرة أصحابه وتابعيهم. وهكذا بدأ التدوين التاريخي بكتابة سيرة الرسول ﷺ، وإلي جانب تعطش الأجيال اللاحقة من المسلمين خارج شبه الجزيرة العربية في العقود التالية لانتشار الاسلام إلي سيرة الرسول ﷺ بدأ الاهتمام بدراسة حياته من أجل تدوين «السنة» المتمثلة في أحاديثه وأفعاله. ومن أشهر كتب السيرة المبكرة كتاب سيرة ابن هشام. وفي ذات الوقت ازداد الاهتمام بدراسة حياة الأجيال المبكرة من أصحاب رسوا الله ﷺ وتابعيهم من أجل توثيق رواياتهم للحديث.

فازداد العمل في حقل السيرة وتطور منهج سيرة الأجيال المتعاقبة إلى ما عرف بالطبقات. فقد قسم كتاب السيرة تلك الأجيال المتعاقبة إلى طبقات فقالوا الطبقة الأولى طبقة الصحابة والثانية طبقة التابعين والثالثة من تلاهم، ثم قسموها زمنياً بالخمسين سنة الأولى ثم التي تليها وهكذا، ومن أشهر كتب الطبقات المبكرة طبقات ابن اسحاق. وقد كان منهج السيرة معروفاً في التاريخ قبل المسلمين ولكن منهج الطبقات منهج استحدثه المسلمين لتسهيل دراسة الأجيال المتعاقبة من المسلمين.

وهكذا ارتبطت نشأة التدوين التاريخي بنشأة علم الحديث لاشتغال كل من المؤرخين والمحدثين بسيرة الرسول ﷺ وسيرة الأجيال المبكرة من المسلمين، وظل هذا الارتباط قائماً حتى بعد انفصال موضوع علم التاريخ من موضوع علم الحديث. وكان من يغلب عليهم العمل في ميدان التاريخ أكثر من الحديث يعرفون باللإخباريين، ومن يغلب عليهم العمل في حقل السنة يعرفون بالمحدثين.

ومثلت المدينة النواة الأولى التي انطلق منها العمل في حقل التدوين التاريخي فاشتهرت مدرسة المدينة التاريخية كرائد في هذا الميدان إلي جانب المدارس المبكرة الأخري مثل مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة دمشق ثم مدرسة بغداد. وإلي جانب السيرة والطبقات اشتهرت تلك المدارس بالعمل المبكر في مختلف ميادين التدوين ذات الصلة المباشرة بعلم التاريخ أو علم الأخبار كما كان يعرف أيضاً الكتابات في الأنساب والفتوح والخراج والأموال والجغرافيا والرحلات والسياسة.

وقد واكب تدوين السنة والسيرة العمل في ميادين أخرى منذ العقود الهجرية الأولى اقتضتها الأوضاع المتجددة وساهمت في غزارة التدوين التاريخي المبكر نتعرض سريعاً إلى بعضها. فقد أدت الحاجة إلي خروج الجيوش من شبه الجزيرة العربية إلى مختلف الجبهات إلى قيام ما يمكن تسميته بالتعداد العام للقبائل العربية لمواجهة الامدادات المطلوبة في جبهات القتال المتعددة. فتم في عصر الخليفة عمر إحصاء قبائل العرب وتدوينها فتوفرت المادة لما عرف فيما بعد بعلم الأنساب.

كما دعت حاجة القتال في مختلف الجبهات إلى جمع معلومات عن المناطق التي اتجهت إليها جيوش المسلمين منذ بداية الفتوحات إذ كان لابد من توفر معلومات دقيقة للمحاربين عن المناطق التي يتوجهون إليها. مثل معرفة طبيعة الأرض التي يواجهون فيها العدو، هل هنالك صحارى أم جبال أم أنهار وبحيرات؟ وهل تتوفر مياه الشرب والغذاء لهم ولدوابهم؟ وما هو المناخ لتلك المناطق المختلفة؟ مثل هذه المعلومات ضرورية لتقدم الجيوش ورسم خطط سيرها ومعداتها ورسم خطط القتال. من أجل ذلك كانت تصل معلومات جغرافية متنوعة ومنتظمة لكل جبهات القتال إلي المدينة حيث كان الخليفة وكبار الصحابة يمثلون حجرة العمليات لمختلف جبهات القتال وكانوا يعتمدون على تلك المعلومات في تتبع عمليات الفتوح وتزويد القواد بالأوامر والتوجيهات.

وفرت المعلومات مادة غزيرة تأسس عليها إلى جانب بعض الاحتياجات الأخرى علم الجغرافيا. ومفهوم علم الجغرافيا في تراثنا الاسلامي يختلف عن مفهوم علم الجغرافيا الحالي الذي يرجع إلي التصنيف الغربي للمعرفة. أما في مفهوم كتاب التراث فقد تناولوا الأرض ومظاهرها الطبيعية والمناخية وما عليها من سكان وأنشطتهم الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وتاريخهم الماضي تحت عنوان الأخبار كما فعل مثلاً المسعودي الذي كتب في القرن الرابع الهجري في كتابه أخبار الزمان.

وإلى جانب الحاجة إلى المعلومات الجغرافية للأغراض الحربية كانت المعلومات الجغرافية هامة جداً أيضا للمسلمين الذين توسعوا في خلال القرن الهجري الأول ما بين الهند شرقاً والأندلس غرباً. فمثلاً كان لابد من تحديد اتجاه القبلة من الهند أو أواسط آسيا أو جنوب أوربا وغربها، ويتطلب ذلك المعرفة بالجغرافية الفلكية، كما يتطلب الحج إلي مكة المعلومات للحجاج عن المسالك

والطـرق التـي تعبرهـا القوافـل في شـهور كثـيرة أو تسـافرها السـفن مـن مناطـق بعيـدة. فالحـاج ينبغـي عليـه أن يعـرف الكثـير عـن تلـك الطـرق البريـة والبحريـة لكـي يوفـر الاحتياجـات المختلفـة لرحلتـه التـي قـد تسـتغرق شـهوراً كثـيرة مثـل السـفر مـن جنـوب شرق آسـيا بحـراً أو مـن أواسـطها بـراً إلي مكـة.

ولـو أضفنـا إلي ذلـك بعـض المتطلبـات الأخـرى مثـل حاجـة التجـارة والسياسـة إلي مثـل تلـك المعلومـات وجدنـا أن المـادة قـد توفـرت للعمـل في حقـل الجغرافيـا. وظهـرت العديـد مـن المؤلفـات المتنوعـة المبكـرة في مجـالات الجغرافيـا الوصفيـة والفلكيـة والمعاجـم الجغرافيـة وتدويـن الرحـلات. جـاءت تلـك المؤلفـات تحـت عناويـن متنوعـة مثـل كتـب المسـالك والممالـك ككتـاب الاصطخـري وكتـب البلـدان مثـل كتـاب اليعقوبـي وكتـاب ابـن الفقيـه وكتـاب صـورة الأرض لابـن حوقـل وأحسـن التقاسـيم في معرفـة الأقاليـم للمقـدسي وكتـاب الجغرافيـا لابـن سـعيد وكتـاب نزهـة المشـتاق في اخـراق الآفـاق للادريـسي ورحلـة ابـن بطوطـة.

وقـد تطلبـت الأوضـاع التأليـف أيضـاً في مجـالات أخـرى مثـل تدويـن التجـارب السياسـية مثـل كتـاب الأحـكام السـلطانية وتدويـن الفتوحـات مثـل كتـاب فتـوح البلـدان للبـلاذري وتدويـن الأمـور الماليـة مثـل كتـاب الأمـوال لأبـي عبيـدة وكتـاب الخـراج لأبـي يوسـف. وقـد لفتـت المـادة التاريخيـة في القـرآن أنظـار المسـلمين إلى تاريـخ العالـم فبـدأوا التدويـن مبكـراً في هـذا المجـال مثـل تاريـخ الطـبري وكتـاب الكامـل لابـن الأثـير و كتـاب البدايـة والنهايـة لابـن كثـير وتاريـخ ابـن خلـدون. وإلى جانـب التاريـخ العـام ظهـرت المؤلفـات التـي عالجـت التواريـخ المحليـة مثـل تاريـخ مكـة للأزرقـي وتاريـخ المغـرب للرقيـق القيروانـي وتاريـخ دمشـق لابـن عسـاكر.

فحركـة التدويـن في مجـال التاريـخ قـد بـدأت في وقـت مبكـر يمكـن إرجاعهـا إلي القـرن الثانـي الهجـري الثامـن الميـلادي، غـير أن أغلـب المؤلفـات التـي وصلـت إلينـا يعـود أقدمهـا للقـرن الثالـث الميـلادي. وكانـت اللغـة العربيـة هـي لغـة التأليـف السـائدة في كل العالـم الاسـلامي، ولـم يمنـع ذلـك ظهـور بعـض الكتابـات باللغـات الاسـلامية الأخـري في تلـك الأوقـات المبكـرة مثـل اللغـة الفارسـية في مناطـق أيـران وأفغانسـتان الحاليتـين واللغـة الأمازيغيـة في شـمال افريقيـا ثـم اللغـة العثمانيـة في الدولـة العثمانيـة وهـي تركيـا الحاليـة.

وهكـذا تطـورت حـركات التدويـن عنـد المسـلمين في وقـت مبكـر مـن قيـام الدولـة الاسـلامية. وإلى جانـب العوامـل سـالفة الذكـر التـي أدت إلى بدايـة تلك الحركـة الكبرى

في التدوين كان هنالك بعض العوامل الأخرى التي دفعت حركة التدوين دفعات قوية إلى الأمام وساهمت مساهمة كبيرة في تطور علم التاريخ عند المسلين. ولعل من أهم تلك العوامل القرآن الكريم وعلوم الشريعة والتراث القديم الذي ورثته الأمة عند قيامها. وفيما يلي استعراض سريع لهذين الجانبين.

تأثير القرآن الكريم وعلوم الشريعة:

القرآن الكريم كتاب منهج عام للحياة في جميع مناحيها، فهو ليس كتاباً في التاريخ لكنه احتوي على الكثير من المادة التي أثرت بدرجة كبيرة على مفهوم المسلمين العام لعلم التاريخ الموضوعات التي يتناولها. كما أجاب القرآن الكريم على الكثير من الأسئلة التي شغلت أذهان الكثير من الشعوب القديمة مثل الأسئلة المتعلقة ببداية حياة الانسان على الأرض وكيفية نهايتها، والهدف من حياة البشر ومدى ارتباطها بما بعد الممات ومدى تأثير ذلك على مجريات أحداث التاريخ البشري.

وقد قدر البعض عدد الآيات القرآنية التي وردت في أحداث التاريخ بنحو 15% من مجمل الآيات. ويدل هذا الكم الهائل من التاريخ في القرآن الكريم على المكانة الكبيرة والهامة التي أولاها القرآن للتاريخ، وبالتالي ضرورة اهتمام المسلمين به. فمن المسلم به أن ما اهتم به القرآن الكريم يجب أن يهتم به المسلمون.

كما وإن الله سبحانه وتعالى طلب من المسلمين في عدد من الآيات القرآنية الكريمة دراسة التاريخ. فقد وردت 29 آية في السير في الأرض والنظر والتبصر في حياة الأمم الماضية، ونحو 130 آية في العبر التاريخية المستقاة من أخبار الماضين. وإذا استعرضنا هذه المادة التاريخية في القرآن الكريم وجدناها تتناول موضوعات وحقب شتى. فقد تناول القرآن الكريم تاريخ الشعوب والأمم داخل بلاد العرب وخارجها مثل قوم نوح وعاد والفرس والروم، وتناول الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية لبعض تلك الأمم.

كما تعرض القرآن الكريم لكثير من الأحداث التاريخية العالمية مثل أحداث أهل الكهف وأصحاب الأخدود واصحاب السبت. وتم تناول سير بعض الأنبياء والرسل وبعض الشخصيات البارزة في التاريخ مؤمنين وغيرهم مثل لقمان وفرعون وذو القرنين وبلقيس. فالتاريخ في القرآن أخذ صبغة عالمية وتطرق

إلى موضوعات متنوعة. بالاضافة إلى أن الله سبحانه وتعالى أمر بدراسة التاريخ فأصبح العمل في حقل التاريخ واجباً على المسلم، توجه إليه أكابر العلماء في العصور المبكرة.

وإلى جانب المادة التاريخية الغزيرة في القرآن الكريم والتي وسعت مدارك المسلمين وطورت موضوع علم التاريخ في نظرهم، ساعد القرآن الكريم في الاجابة على كثير من الأسئلة حول بداية تاريخ البشر على الأرض، ووضح الغرض من وجود الإنسان على الأرض والهدف من حياته، والغرض من دراسة التاريخ. كل هذه العوامل ساعدت كثيراً في تطور علم التاريخ.

ومن ناحية أخرى فإنه كان من غير الممكن دراسة وفهم مصادر الشريعة الإسلامية بدون التاريخ. فتفسير الأحداث التاريخية الواردة في القرآن الكريم تطلبت الكثير من الدراسة والبحث التاريخي. فلتفسير الطبري مثلاً للآيات 4 – 8 من سورة البروج ينبغي عليه القيام ببحث تاريخي موسع لمعرفة من هم أصحاب الأخدود؟ ومتى وفي أي مكان عاشوا؟ ومن أحرقهم؟ وما هي الأوضاع السياسية التي عاشوا في ظلها؟ وغيرها من الأسئلة التي لا بد منها لتفسير ذلك الحدث. وهكذا كان على الطبري الالمام بكل تفاصيل الأحداث التاريخية التي وردت في القرآن ليتمكن من تفسير تلك الآيات.

ودراسة الحديث – المصدر الثاني من مصادر الشريعة الإسلامية – أيضاً تتطلب القيام بكثير من الأبحاث التاريخية. فتوثيق الحديث وإدراك صحته من عدمها والتوصل إلى تقيمه وإعطائه الدرجة التي يستحقها مثل صحيح وحسن ومقبول ومتروك وضعيف يتطلب كل ذلك دراسة رواة الحديث أو ما يعرف «بالسند» دراسة دقيقة ومتأنية وفق مناهج وضعها المحدثون والتزموا بها في تقييمهم للأحاديث. فقد ذكر ابن الصلاح عن سفيان الثوري أنه قال: «لما استعمل الرواة الكذب استعملنا التاريخ»[1]

فالبخاري ألف كتابه المعروف في الحديث «صحيح البخاري»، ولكن تأليفه في تاريخ الرجال – كتاب التاريخ الكبير وكتاب التاريخ الصغير – جاء أكثر من كتابته في الحديث. وهكذا فبدون التاريخ لا يمكن دراسة الحديث. كما تتطلب دراسة مصْدَري الشريعة الأخرين الإجماع والقياس ضرورة دراسة تاريخ عصر الرسول والطبقات المبكرة من أصحاب رسول الله ﷺ لأن البحث فيما إذا كان

(1) ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح، تحقيق عائشة عبد الرحمن دار الكتب: 1974 ص 57.

الجيل المبكر من المسلمين أجمعوا على حكم حدثٍ لم يرد فيه نص صريح أو البحث عن حكم مسألة لم يرد فيها نص صريح فيما يمكن أن يكون قد حدث مثلها أو ما يشابهها في حياة الأجيال المبكرة من المسلمين تتطلب دراسة عميقة ومتأنية لتاريخ أجيال المسلمين المبكرة. فالقياس والإجماع لا يمكن التوصل اليهما إلا بدراسة التاريخ.

وهكذا وجدت الأجيال المبكرة من المسلمين أن دراسة مصادر الشريعة الإسلامية القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس والإجماع لا تتم إلا بدراسة التاريخ، ولما كان لا بد من دراسة مصادر الشريعة الإسلامية فأصبح لابد من دراسة التاريخ ليس من جانب المؤرخين فقط بل من جانب كل من يعمل في ميدان الشريعة، فأصبحت دراسة التاريخ عند أولئك الرواد الأوائل واجبة، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن التاريخ أصبح جزءاً من متطلبات الشريعة اعتبر البعض التاريخ جزءاً من علوم الشريعة.

ج. إرث الأمة القديم

السبب الثاني الذي أدى إلى تطور علم التاريخ عند المسلمين الأوائل هو ما ورثته الأمة منذ قيامها من إرثٍ قديم. ويرجع زمن تأسس الأمة إلى وقت دخول الرسول ﷺ المدينة مهاجراً إليها من مكة معلناً بداية الانتماء للهوية الجديد التي حلت محل الهويات القديمة. فقد كان انتماء الناس قبل الاسلام إلى القبيلة مثل المجتمعات القبلية كما في الجزيرة العربية، أو الانتماء العرقي مثل فارسي وهندي أو الانتماء للدولة كما في الامبراطورية الرومانية. وقد حدد الرسول في «وثيقة المدينة» أو «دستور المدينة» كما تعرف في بعض الأحيان قيام الأمة والتي تكونت من سكان المدينة من عرب ويهود مسلمين وغير مسلمين ومن ينضاف إليهم.

وهكذا تكونت الأمة مباشرة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وامتدت إلى داخل شبه الجزيرة بانتشار الاسلام فيها في عصر الرسول ﷺ. فأصبح الولاء الأول للأمة، ولم يبطل الرسول ﷺ الولاءات القبلية أو العرقية أو الاقليمية القديمة بل جعلها تالية للهوية الأولى وهي الأمة. وفي العصر الراشدي الذي امتد حتى نهاية العقد الرابع من القرن الأول الهجري امتد انتشار الإسلام إلى الشام والعراق وبعض مناطق شمال افريقيا وبعض مناطق فارس، ووصلت حدود الأمة في

نهاية القرن الأول الهجري إلى الأندلس غرباً ونهر السند في الهند وأواسط آسيا شرقاً وتم بذلك قيام الأمة في تلك الحدود.

ولعله من الضروري الإشارة إلى أننا عند الحديث عن منجزات الأمة في طورها المبكر في ذلك الامتداد الواسع، ينبغي أن نضع كل تراث الشعوب التي كونت الأمة، ولا ينبغي علينا الرجوع فقط إلي تراث العرب في شبه الجزيرة. فمن هي الشعوب التي كونت الأمة؟ تكونت الأمة من الشعوب التي قادت الحضارة في العالم القديم وهي الشعب الهندي (في منطقة السند) وشعوب بلاد ما بين النهرين والشعب الفارسي وشعوب سوريا القديمة والشعب المصري وشعوب شمال افريقيا. تلك الشعوب دخلت الإسلام بتراثها الماضي العريق ومعارفها المتنوعة، وأصبح ذلك التراث جزءاً من تراث الأمة احتفظ الاسلام بالكثير منه ونبذ فقط ما يتنافى مع تعاليم الإسلام.

وإلى جانب ذلك فقد ورثت الأمة التراث اليوناني-الروماني أو ما يطلق عليه التراث الهليني. لآن ذلك التراث لم يكن محصوراً فقط في حدود اليونان أو الرومان بل امتد واشتهر وتطور خارج تلك الحدود كما في شمال العراق وسوريا ومصر وشمال افريقيا. وكانت المراكز العلمية لتلك الحضارة خارج حدود اليونان كما في الاسكندرية في مصر، وظلت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة والعلم في تلك المراكز.

فسكان سوريا وشمال افريقيا الذين طوروا الحضارة الهلينية أصبحوا مع ذلك التراث جزءاً من الأمة. وبذلك يمكن القول أن المسلمين الأوائل ورثوا الحضارة القديمة ومراكز اشعاعها، وورثوا بذلك الحس والمعرفة التاريخية لكل الشعوب القديمة التي كونت الأمة.

وهكذا توفرت للمسلمين الأوائل معرفة تاريخية غنية من العالم القديم مكنتهم إلى جانب ما زودهم به القرآن الكريم من بناء وتطور حسهم التاريخي، وتمكنوا منذ البداية من تطوير وتغيير الكثير من المفاهيم السابقة لهم عن علم التاريخ. ويتضح ذلك من المفهوم والتعريف الشامل لعلم التاريخ عند الرواد الأوائل الذين اشتغلوا بعلم التاريخ.

6

تفسير التاريخ

ثـارت الكثـير مـن الأسـئلة في عقـول البـشر منـذ القـدم حـول بدايـة الكـون وتفسـير أحـداث التاريـخ والعوامـل المسـيطرة والموجهـة لـه عـبر التاريـخ. في واقـع الأمـر فـإن التعـرف عـلى أفـكار البـشر في الحقـب المبكـرة مـن التاريـخ عمليـة صعبـة تعوقهـا العديـد مـن العقبـات لعـل أهمهـا غيـاب المصـادر. فالمصـادر المتعلقـة بتلـك الحقـب المبكـرة مـن تاريـخ البشريـة غـير متوفـرة إن لـم تكـن معدومـة. كمـا تواجه الباحثـون مشـكلة أخـرى في التعـرف عـلى أفـكار الشـعوب القديمـة وهـي اختـلاف الدارسـين في تفسـير المـادة المتوفـرة عـن تلـك الحقـب الموغلـة في القـدم. فتفسـير تلـك المـادة أتـى وفقـاً لخلفيـات وقناعـات الباحثـين الذيـن ينتمـون إلى مـدارس فكريـة مختلفـة توجـه فهمهـم وشرحهـم للمـادة التاريخيـة. وسـيتضح لنـا لاحقـاً كيـف أن اختـلاف المـدارس يـؤدي إلى اختـلاف التفاسـير.

وقـد رأى الباحثـون أن السـمة البـارزة التـي سـادت أفـكار الشـعوب القديمـة في تلـك الحقـب المبكـرة مـن التاريـخ هي سـيطرة وهيمنـة القـوى الغيبية عـلى مظاهـر الطبيعة وعـلى حيـاة وسـلوك البـشر وبالتـالي سـيطرتها وتوجيههـا لأحـداث التاريـخ.. وحتـى في العصـور التاريخيـة آمنـت الشـعوب القديمـة بقدسـية حكامهـا كمـا في مـصر والعـراق والصـين. وسـارت تلـك الشـعوب خلـف حكامهـا منفذيـن لمطالبهـم ورغباتهـم دون أن يكـون لهـم قـدر ملحـوظ في التأثـير عـلى الأحـداث. وحتـى اليونانيـون والرومـان الذيـن يعتـبرون أكثـر عقلانيـة مـن غيرهـم مـن الشـعوب القديمـة آمنـوا بتدخـل الآلهـة تدخـلاً مبـاشراً في حيـاة البـشر وبالتـالي التأثـير عـلى أحـداث التاريـخ.
وقـد خلفـت الشـعوب القديمـة الكثـير مـن المـادة الاسـطورية وشـبه الاسـطورية عـن نظرتهـم وتفسـيرهم لبدايـة الخلـق وظهـور البـشر عـلى الأرض وبدايـة مسـيرة تاريخهـم كمـا فعلـت شـعوب مـا بـين النهريـن وشـعب وادي النيـل والصينيـون والهنـود. ولعـل مـن أطـرف رؤيـة للكـون جـاءت في الـتراث الفـارسي حيـث مثلـوا

الكـون بكتـاب قديـم فقـدت الصفحـات الأولى والأخـيرة منـه، فأصبحـوا لا يعلمـون شيء عـن بدايتـه أو نهايتـه.
وقـد سـاهم الـتراث اليهـودي بقـدر وافـر في المعرفـة القديمـة حـول بدايـة تاريـخ الإنسـان والعامـل المحـرك لـه، فقـد احتـوى العهـد القديـم مـن الكتـاب المقـدس عـلى معلومـات وضحـت تلـك المواضيـع وصاغـوا مـن خلالهـا نظرتهـم لتاريـخ العالـم الـذي ارتبـط بالرسـالات السـماوية، ومـدى تأثـير الرسـل عـلى حيـاة البـشر عـبر التاريـخ وبالتـالي تأثيرهـم عـلى مسـار التاريـخ البـشري.

ربـط الـتراث اليهـودي أحـداث بدايـة التاريـخ بالفـترة التـي قضاهـا آدم في الجنـة باعتبارهـا المرحلـة المبكـرة مـن تاريـخ البـشر. وبـدأت المرحلـة الثانيـة بهبـوط آدم إلى الأرض حيـث اهتـدى البـشر بالرسـالات السـماوية حتـى ظهـور المسـيح عيـسى بـن مريـم عليـه السـلام. وقـد تضمـن الـتراث اليهـودي مسـاهمة جـادة بربـط مسـيرة التاريـخ بأعمـال الرسـل، ولكـن يؤخـذ عـلى الـتراث اليهـودي تركيـزه عـلى أنبيـاء بنـي اسرائيـل، ومـا ورد ذكـره مـن أعمـال الرسـل خـارج هـذا الإطـار كان بمثابـة مقدمـة الوصـول إلى انبيـاء بنـي اسرائيـل.

وسـار الـتراث المسـيحي عـلى نهـج الـتراث اليهـودي، ورسـم المفكـر المسـيحي المشـهور القديـس أوغسـطين الـذي عـاش وتـوفي في الجزائـر في النصـف الأول مـن القـرن الخامـس الميـلادي التصـور المسـيحي لمسـار التاريـخ. نظـر أوغسـطين إلى التاريـخ مـن خـلال مدينتـين إحداهمـا مدينـة اللـه والأخـرى مدينـة الشـيطان. وقـد اختلطـت المدينتـان وتقاسـمتا أحـداث التاريـخ حتـى جـاء نبـي اللـه إبراهيـم فتميـزت مدينـة اللـه أو مدينـة السـماء – كمـا يُطلـق عليهـا أيضـاً – تحـت انبيـاء بنـي اسرائيـل الذيـن قـادوا تاريـخ البشريـة تحـت هـدي الرسـالات السـماوية. أمـا مدينـة الشـيطان فقـد كانـت تحـت حكـم الأباطـرة والملـوك الذيـن قـادوا شـعوبهم وفقـاً لأهوائهـم لتحقيـق أغراضهـم ومنافعهـم الخاصـة.

ورأى القديـس أوغسـطين أن المدينتـان اتّحدتـا بمجـيء المسـيح وأصبحـت القيـادة لمدينـة السـماء حيـث تقـود الكنيسـة أحـداث التاريـخ. وربـط قـادة المسـيحية المبكريـن بـين معصيـة آدم في الجنـة ومسـار التاريـخ البـشري. فقـد جـاء في الكتـاب المقدس(سـفر التكويـن 3: 17) كيـف أن اللعنـه حلـت بـالأرض بسـبب خطيئـة آدم بهبوطـه إليهـا بعـد أن عـصى أمـر ربـه في الجنـة. ويـرى أولئـك القـادة أن الـشر قـد دخـل العالـم بخطيئـة أدم حتـى جـاء المسـيح مخلـص البشريـة مـن الخطيئـة

كما جاء في يوحنا (1: 28) «هو ذا حمد الله الذي يرفع خطيئة العالم.» وقدم السيد المسيح نفسه قرباناً لتلك الخطيئةً. وخلاص البشر – كما رآه أولئك القادة – يتم بإيمانهم بالمخلص واتباع هديه.

وهكذا قررت الكنيسة الهدف والغاية من حياة البشر على الأرض، وأن أحداث التاريخ لا دلالة لها إلا في الفداء الروحي للبشرية، وعلى الناس التقيد في حياتهم بما جاء في الكتاب المقدس وأي خروج على ذلك خروج على رسالة الإنسان على الأرض. فجاء المفهوم المسيحي للتاريخ ضيقاً ومحصوراً في سير القادة الدينيين وما يتعلق بشؤون الكنيسة. وكل ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية ينبغي عدم الاهتمام بها. مثل هذه المواقف أدت بالفكر الغربي في عصره الحديث إلى رفض أفكار الكنيسة.

وجاءت رؤية الإسلام لمسيرة التاريخ مغايرة للتفسير اليهودي والمسيحي. فقد تأسس التفسير الإسلامي على أن الهدف والغاية من الحياة هو القيام بمهام الخلافة التي هي عمارة الأرض وفقاً للقواعد والقوانين التي سنها الله، والخلافة تقتضى التكليف قال الله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها فحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ الأحزاب: 72. والأمانة هنا كما شرحها المفسرون تعني التكليف.

فالإنسان منوط به القيام بمهمة محددة على الأرض وهي العمل على عمارة الأرض واستغلال ما سخره الله عليها كما وضح ذلك في عدد من الآيات مثل : ﴿ سخر لكم الفلك والأنهار﴾ إبراهيم: 32 و﴿ سخر لكم ما في الأرض﴾ الحج: 65 و﴿ سخر لكم ما في السموات والأرض﴾ لقمان: 20. وقد زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعقل والمعرفة وزوده بإرشاد الرسل من وقت لآخر لتوضيح القواعد والقوانين التي يتبعها في القيام بمهمته على الوجه المطلوب، ووضح له ما يترتب على انصياعه وعمله والتزامه بالقوانين أو عدم الالتزام بها.

فللإنسان في الإسلام مساحة واسعة من الحرية والاختيار، ومن أجل ذلك فهو محاسب على أعماله التي هو مخير فيها، وهو صانع التاريخ. فكل أحداث التاريخ في المفهوم الإسلامي من أفعال البشر، وتوجد الكثير من الآيات الموضحة لذلك مثل قوله تعالى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ الرعد 11.وقد وضح الله

تعالى في عدد من الآيات أنه أرسل لكل البشر على مر العصور رسلاً ليقوموا بمهمة الإرشاد وتوضيح القوانين، وذكر الله تعالى أنه لا يحاسب البشر حتى يبلغهم رسالته ويوضح لهم قوانينه مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ فاطر: 24.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ النحل: 36. ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾ الاسراء: 15.

فالله سبحانه وتعالى أرسل رسله لكل البشر على مدار التاريخ وفى كل بقاع الأرض حيث بلغ رسالته ووضح للبشر شروط الخلافة والتكليف. والرسل الخمسة والعشرون المذكورة أسماءهم في القرآن الكريم ليسوا كل ما أرسل الله تعالى، فقد أتى ذكرهم لارتباطهم بالأحداث ذات الصلة بمجتمعات العرب والمناطق القريبة منها. وقد وضح الله تعالى ذلك في قوله لرسوله محمد ﷺ ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ النساء: 64.

وهكذا لم يواجه المؤرخون المسلمون الأوائل مشكلة في التعرف على بداية تاريخ البشرية والعامل المؤثر على مسيرته عبر التاريخ. وما جاء به أولئك الرواد هو تفسير العوامل ذات الأثر على مسيرة التاريخ مثل المناخ والتضاريس والعوامل الطبيعية الأخري ولكن في إطار القانون العام الذي وضعه الله للبشر.

فللبشر وظيفة محددة في هذه الحياة وهي مهمة الخلافة، وتسير حياتهم على الأرض وفقاً لقوانين واضحة وهي سنن الله في الكون والحياة. فما يقوم به البشر من نشاطات اجتماعية واقتصادية وسياسية تصب كلها في تنفيذ مهمة الخلافة وموجهة وسائرة وفق القوانين التي وصلت الناس عبر الرسل. وكل تلك النشاطات هي أحداث التاريخ، فأحداث التاريخ في المفهوم الإسلامي توجهها القوانين المرتبطة بالغاية من وجود وحياة الانسان على الأرض، تلك الغاية هي عمارة الأرض وتوجيه دفة الحياة على الأرض وفقاً لسنن الله في الكون والحياة التي تحقق مهمة خلافة الانسان في الأرض. فمهمة الخلافة هي

التـي تدفـع حركـة التاريـخ. وهكـذا يقـوم التفسـير الإسـلامي للتاريـخ عـلى هذيـن الركنـين: الخلافـة في الأرض والقوانـين المرتبطـة بهـا.

فعمـارة الأرض تتـم بقيـام المجتمعـات والمؤسسـات المختلفـة، وتطـور الحضـارات وظهـور الممالـك والامبراطوريـات ينبغـي النظـر إليهـا وتفسـيرها مـن هـذا المنطلـق. كيـف قامـت الحضـارات القديمـة مثـل حضـارة وادي النيـل وحضـارة بـلاد مـا بـين النهريـن وحضـارات الصـين والهنـد واليونـان والرومـان؟ ومـا هـي الأفـكار التـي سـادت ووجهـت تلـك الحضـارات؟ وكيـف كان تعامـل تلـك الشـعوب مـع سـنن اللـه في الكـون (التعامـل مـع الطبيعـة) وسـننه في الحيـاة (القواعـد والقوانـين ومهمـة الخلافـة)؟ ومـاذا كانـت النتائـج في حالـة الالتـزام بتلـك السـنن والقوانـين مـن عدمهـا؟

وبالرغـم مـن أنـه يبـدوا مـن الصعـب الإجابـة عـلى مثـل هـذه الأسـئلة مـن وجهـة النظـر الاسـلامية لتفسـير التاريـخ ، إلا أنـه في الواقـع ليـس ذلـك بالأمـر المسـتحيل، بـل ربمـا بـدى واضحـاً إذا مـا قمنـا بمراجعـة المـادة التاريخيـة المتوفـرة وفقـاً للمفاهيـم الاسـلامية. فعـلى سـبيل المثـال وفقـاً للمفهـوم الاسـلامي فـإن الانسـان بـدأ حياتـه الدينيـة بعقيـدة التوحيـد المتمثـل في ديـن آدم عليـه السـلام وسـلالته مـن بعـده. ثـم بمـرور الزمـن حـدث الانحـراف والبعـد عـن الممارسـة السـليمة لعقيـدة التوحيـد، فـكان اللـه سـبحانه وتعـالى يـوالي إرسـال الرسـل لتصحيـح القعيـدة. ولذلـك فعقيـدة التوحيـد وفقـاً للمفهـوم الاسـلامي متجـذرة في تاريـخ الـشر.

فلـو راجعنـا بعـض المـادة الأثريـة الموجـودة تحـت ايدينـا مـن خـلال هـذا المفهـوم أمكننـا إعـادة تفسـيرها. فعنـد مراجعتنـا عبـادة التوحيـد – مثـلاً –في عـصر الملـك المـصري إخناتـون، وبحثنـا هـل يوجـد ربـط بـين تلـك الابتهـالات ورسـالات الأنبيـاء التـي أتـت بالتوحيـد واضعـين في اعتبارنـا أن أمـة وادي النيـل قبـل إخناتـون لا بـد وأن تكـون قـد بلغتهـا رسـالة التوحيـد وفقـاً لمـا جـاء في القـرآن الكريـم ﴿ وإن مـن أمـة إلا خـلا فيهـا نذيـر﴾ وغيرهـا مـن الآيـات التـي سـبقت الإشـارة إليهـا.

وتوجـد الكثـير مـن الأمثلـة المتعلقـة بالمـادة التاريخيـة التـي يمكـن مراجعتهـا مـن خـلال التفسـير الإسـلامي للتاريـخ مثـل الهيـاكل العظميـة والجماجـم وقوانـين حمورابـي والأدوات الحجريـة وتحقيـب التاريـخ وتاريـخ الأسرة . فلـو أخذنـا الهيـاكل العظميـة والجماجـم التـي يُفـترض أنهـا تمثـل بقايـا سلسـلة التطـورات التـي مـر بهـا أسـلاف الانسـان حتـى بلـغ مرحلـة الانسـان الحـالي. ومـن المسـلم بـه أن تلـك

الهياكل والجماجم تختلف عن هيكل وجمجمة الانسان الحالي وفي نفس الوقت فهي ليست للقردة ولذلك افترض من يؤمنون بنظرية التطور انها تنتمي إلى أسلاف البشر.

ويبدو الأمر مختلفاً إذا نظرنا إليها من وجهة نظر إسلامية، فقد تناولت المصادر الاسلامية المبكرة أصل الحياة وبداية التاريخ البشري. وتضمن ذلك التراث الكثير من المادة عن الخلق والمخلوقات قبل آدم. وتضمنت تلك المؤلفات فصولاً مستقلة عن الأمم قبل آدم كما عند المسعودي في كتابه أخبار الزمان والمقدسي في كتابه البدء والتاريخ. فقد أشار المسعودي إلى 28 أمة على الأرض قبل آدم ... ومن بين تلك الأمم أمة تشبه بني آدم. وقد اختلطت تلك الأمم مع بعضها ونتج عنها 120 أمة.[1] كما ذكر الطبري أن آدم كان آخر الخلق وأن كل المخلوقات خلقت قبله.[2] وقد لخص المقدسي ما ذكر عن الأمم قبل آدم في التراث القديم وجاء فيما ذكره أنه كان قبل آدم «ألف ومئتان ألف آدم ونوح.»[3]

لو تتبعنا ما ورد في التراث القديم وأخذنا ما ورد عن وجود مخلوقات على الأرض قبل آدم أمكن افتراض أن تلك الهياكل العظمية والجماجم ترجع إلى مخلوقات عاشت على الأرض قبل آدم، غير أنها تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة للتعرف عليها. ولكنها لا تنتمي إلى الانسان الحالي، لأن الانسان الحالي خلق بصورته الحالية انساناً كاملا لا علاقة له بأي أثر يختلف عن تكوينه الحالي. وهكذا يمكن مراجعة الكثير من المادة التاريخية المتاحة وتفسيرها وفقاً للمفهوم الاسلامي.[4]

التفسير الغربي للتاريخ:

من الضروري التوقف قليلاً مع التفسير الغربي للتاريخ لأنه يمثل التفسير السائد والمؤثر على الأنماط الفكرية السائدة في عالمنا المعاصر بما في ذلك فكر المسلمين. ومن المعروف أن الفكر الغربي الحديث تكون في الخمسة قرن الماضية منذ بداية عصر أوربا الحديث. وقد ارتبط هذا الفكر بالنظرة السائدة للكون world view في الغرب ، حيث ينظر أغلب المفكرين

(1) المسعودي،أخبار الزمان دار الأندلس ب. ت. ص 32.

(2) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن. بيروت: دار الفكر 1405 ج 1 ص 207.

(3) المقدسي، البدء والتاريخ. موقع الوراق ج 1 ص 82.

(4) تمت مناقشة هذا الموضوع بشيء من التفصيل في محاضرة قدمتها في معهد التنوير المعرفي عن بداية التاريخ بين المفهوم الاسلامي والغربي.

إلى الكون والحياة من خلال مسلمات أساسية بنو عليها فلسفاتهم وفسروا بها ظواهر الكون وحركة التاريخ ومن أهم هذه المسلمات ما يلي:

أن الحياة على هذا الكون وُجدت لعوامل طبيعية وتطورات من مراحل أولية إلى مراحل أكثر تعقيداً. وبما أن الانسان ابن للطبيعة فقد تدرجت معارفه وأفكاره عليها بدءاً بالمراحل الخرافية المبكرة إلى مراحل الغيبيات. وأخيرا تخطى الفكر الانساني تلك المراح البدائية وبلغ مرحلة العلم فأصبح الغيب فكراً متخلفاً. ونظر مفكرو الغرب إلى الوحي بأنه لا يعطي البشر شيئاً لا يستطيع العقل الإنساني - بعد التطور العلمي الذي بلغه – أن يجده بمفرده. وحتى لو كانت هنالك بعض الأسئلة التي قد تستعصي على الفكر اليوم ستجد الاجابة غداً لأن العلم في تطور مستمر[1].

وأصبح العالم المادي المحسوس هو محور الفكر الغربي، فالمدنية الغربية – كما يرى محمد أسد – لا ترى في نطاقها الفكري الحالي مجالاً ولا فائدة لوجود الله.[2] وترى أن عالم الانسان هو من عمل الإنسان وحده.[3] وأن البيئة المادية هي وحدها هي التي تفرض شكل مصير الإنسان، وأن التقدم الذي حققه ويحققه الإنسان في مجال السيطرة على قوى الطبيعة حقيق بمنحه السعادة على الأرض.[4]

ولذلك رفض الفكر الغربي التفسير المسيحي للتاريخ، ورأى أن التاريخ البشري يسير نحو التقدم المستمر وأن الحياة تتقدم وتتطور على الدوام. فمنذ فجر التاريخ بدأ يطور الإنسان حياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فنشأت المجتمعات الكبرى وقامت الممالك والامبراطوريات، وتطورت أنماط ووسائل الانتاج وأنظمة الحكم وواصل هذا التطور مسيرته حتي ظهرت أوربا الحديثة. وقد رسخ هذا المفهوم في أذهان الأوربيين ما حققته المجتمعات الأوربية في القرون التي تلت عصر نهضتها من تطور في جميع مرافق الحياة. فساد مفهوم التطور المستمر في مسار التاريخ.

---

(1) هوجوتهولد افرايم لسنج، الجنس البشري ترجمة وتعليق حسن حنفي ط 1 القاهرة: دار الثقافة الجديدة 1977 ص 232

(2) محمد أسد، «التراث وأثره على أوربا» مجلة الزهراء، جامعة الأزهر، كلية الدراسات العربية فرع البنات (عدد 5 يناير 1987 ص 382) ولد محمد أسد في بولندة عام 1900 وكان يهودياً، درس اليهودية والمسيحية والإسلام فأسلم. وأهم مؤلفاته: الإسلام على مفترق الطرق، مناهج الإسلام في الحكم.

(3) عفت الشرقاوي، في فلسفة التاريخ ط 4 بيروت: دار النهضة العربية 1985 ص 239.

(4) عبد الحميد صديقي، التفسير الإسلامي للتاريخ بيروت: دار العلم للملايين 1984 ص 15 – 16.

وقد حاول بعض المفكرين أمثال روجر بيكون (ت 1626م) التعديل في نظرة الكنيسة إلى التاريخ حتى تتمشى مع توجه الفكر الغربي. فلم ير في فكرة الخلاص تلك النظرة الكنسية التشاؤمية بل رأى فيها نوعاً من التقدم في التاريخ وقضاءاً على مظاهر الفساد والطغيان.[1] وقد أفرز الفكر الغربي الحديث الكثير من التفاسير أو النظريات التي فسر بها العامل المؤثر والدافع لحركة التاريخ البشري. وتنوعت تلك التفاسير من تفسير اعتمد علي الجوانب المادية البحتة مثل التفسير الماركسي للتاريخ أو الجانب الروحي البحت مثل التفسير الهيجلي للتاريخ أو التفسير الذي ربط بين الجانبين الروحي والمادي مثل تفسير تونبي للتاريخ.

والتفسير الذي ساد في الغرب منذ بداية العصر الحديث هو ما عرف بـ»التقدم المستمر في التاريخ» اشتهر هذا التفسير في أوربا في الحقبة التي عرفت بعصر التنوير أو عصر العقل. لأن أغلب مفكري أوربا وقفوا وقفة جادة أمام التفاسير التي يقدمها الكتاب المقدس للحياة، ونادوا بضرورة سيادة العقل والتفسير المنطقي وبلغ هذا التوجه قمته في القرن الثامن عشر. وذهب المفكرون الأوربيون إلى معارضة تفسير الكنيسة لحركة التاريخ والذي يقول بأن حياة البشر تسير بصورة عامة في تردي وانحدار منذ نهاية العصر الذهبي بطرد آدم من الجنة. وستظل مسيرة تاريخ البشرية في ذلك الانحدار إلى أن تنتهي حياة الانسان على الأرض. فالتاريخ في نظر الكنيسة يسير بصورة دائمة في حالة نكوص إلى الخلف.

وفسر المفكرون خارج نطاق الكنيسة حركة التاريخ بأنها في تقدم وتطور ملحوظ ومستمر، تطورت فيها مداركه ومعرفته منذ بداية حياته على الأرض. فطور الانسان أدواته من حجرية إلى معدنية إلى طاقة هوائية وبخارية، كما تطور انظمته الاجتماعية والسياسية. وقرروا أن حياتهم بالتأكيد خير من حياة أسلافهم في القرن السابع عشر، وستتحسن الحياة بتطور المعرفة والعلوم في المستقبل. ولذلك فإن حركة التاريخ ليست في نكوص وتردي إلى الخلف، بل بالعكس من ذلك هي في تقدم مستمر إلى الأمام، وتطورت بذلك نظرية «التقدم المستمر في التاريخ» وسادت الفكر الأوربي حتى بداية القرن العشرين.

(1) لسنج، تربية الجنس البشري ص 78.

قـد أدت أحـداث النصـف الأول مـن القـرن العشريـن إلى مراجعـة بعـض المفكريـن الغربيـين لمفهـوم التطـور المسـتمر في التاريـخ وفي حيـاة البـشر. فقـد نتـج عـن الحربـين العالميتـين دمـار شـامل في أوربـا حطـم مـا بنتـه الشـعوب في القـرون الماضيـة ممـا أدى إلى اهتـزاز صـورة التقـدم المسـتمر وظهـور بعـض الآراء والنظريـات الجديـدة. فتنبـأ بعـض الكُتـاب بسـقوط الحضـارة الغربيـة، وظهـرت بعـض التفسـيرات الجديـدة لحركـة ومسـار التاريـخ.

فجـاء سـبنجلر (ت 1936) بآرائـه وتفسـيره للتاريـخ. لـم يـر سـبنجلر في أحـداث التاريـخ تقدمـاً للعقـل البـشري وتطـوراً مسـتمراً لـكل مرافـق الحيـاة، بـل رأى أن تاريـخ البـشر مثـل الكائـن العضـوي ينبـت وينضـج ثـم يزبـل ويفنـى. وهكـذا الحضـارات تتـدرج وفقـاً لهـذا الـدور تبـدأ بمرحلـة الـولادة تـم تتـدرج في النمـو حتـى تصـل مرحلـة الشـيخوخة ثـم تصـير إلى الفنـاء، ثـم تبـدأ دورة جديـدة للحضـارة وتمـر بنفـس المراحـل وهكـذا.

ثـم جـاءت أفـكار تونبـي - عـاصر الحربـين العالميتـين – التـي انتقـدت بشـدة جنوح الفكـر الغربـي نحـو الماديـة واعتـبرت أن الحيـاة الروحيـة هـي المحـك الحقيقـي لرقـي المجتمعـات. ورأى تونبـي أن أحـداث التاريـخ يتحكـم فيهـا قانـون التحـدي والاسـتجابة. فالمجتمـع حـين يواجـه التحـدي - أيّـاً كان ذلـك التحـدي – تختلـف المواقـف تجاهـه، فـإذا كانـت الاسـتجابة موجبـة وتمكـن المجتمـع مـن مواجهـة ذلـك التحـدي تمكـن مـن الصمـود وإرسـاء قواعـد بنائـه وسـار في طريـق الرقـي والتقدم. أمـا إذا كانـت الاسـتجابة سـلبية ولـم يتمكـن مـن الصمـود أمـام التحـدي فينهـار ولا يكـون لـه أثـر في مجـرى التاريـخ. وقـد أدت هـذه العوامـل إلي قيـام وتطـور الحضـارات منـذ القـدم ، ولا زالـت هـي العامـل الهـام في تحريـك أحـداث التاريـخ.

وقـد بـرز في الفكـر الأوربـي في تلك الأوقـات أيضا تفسـير آخر لحركـة التاريخ لـم يُنكر مؤيـدوه التقـدم المسـتمر في التاريـخ ولكـن قالـوا بـدور القائد الهـام في توجيـه حركة التاريـخ، وهـو مـا عـرف بـ»نظريـة البطولـة في التاريـخ» ناقـش د عبـد العزيـز عبد الغنـي[1] مـا ورد عـن دور البطـل في تحريـك وتوجيه مسـار التاريخ متتبعـاً ذلك الدور منـذ قيـام الحضـارات القديمة وارتبـاط دور البطـل في تلك الحقـب بنوع من القداسـة. ويعـزي مؤيـدو هذا الـرأي للأبطال الدور الأسـاس في تحريـك المجتمعـات وتوجيه عجلة التاريـخ لمـا يتميزون بـه من صفـات وملـكات تفوق باقـي أفـراد المجتمع.

(1) التاريخ: تأريخه وتسيره وكتابته ص 196 – 207.

فتحلل الاقطاع في أروبا مثلاً نتج عن انفتاح وسط وغرب أوربا على عالم البحر المتوسط منذ القرن الثامن الميلادي ودخولها عالم التجارة وأدى ذلك إلى بداية تغير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الأمر الذي تمخض عن بروز قادة شرعوا وقننوا لتلك الأوضاع الجديدة. وهكذا كلما حدث التغيير في المجتمع الأوربي برز القادة والمفكرين لمواكبة وتوجيه ذلك التغير مثل التحول الذي بدأ بعد دخول أوربا عصر تجارة المسافات الطويلة عبر المحيطين الأطلسي والهادي، ثم التحول الذي أعقب الثورة الصناعية ثم الاستعمار ونمو راس المال وهكذا الأبطال والقادة في أوربا ظهروا نتيجة التحولات في المجتمع ولم يخلقوا تلك التحولات بل قادوها ووجهوها.

وقد أشار د عبد العزيز إلى موضوع قلما يجد الاهتمام الكافي من الباحثين ذلك هو دور الرسل في مسار التاريخ، أشار بعض الباحثين الغربيين إلي ذلك امثال تونبي وهيجل الذي جعل دور البطل مقارباً لدور الرسل. الموضوع يحتاج إلى المزيد من البحث. وأرى أنه من الضروري الاهتمام بهذا الموضوع وإعطائه حقه من البحث. فالرسل كانوا مدعومين وموجهين بالوحي ولكن كان لدورهم القيادي ولشخصياتهم الفاعلة في مجتمعاتهم دور بارز في توصيل السالة وتحقيق أهدافها. فالرسل يختلفون عن الأبطال في أنهم يحدثون التغيير عن طريق الوحي ويقودون مجتمعاتهم بينما يكون المجتمع مهيأ للقيادة بالنسبة للبطل.

7

تقسم التاريخ إلى حقب

كانت بداية اشتغال الشعوب القديمة بالتاريخ منحصرة في تدوين الأحداث المحلية، ومضى وقت طويل قبل أن تتجه تلك الشعوب إلى الاهتمام التي تربط أقاليمهم بالمناطق المجاورة لها. وأدت البدايات الأولى لهذا الربط إلى الانتقال من المحلية إلى النظرة العامة لتاريخ البشرية والروابط والصلات بينها سلمية كانت أو عدائية.

ويمكن ملاحظة جوانب تلك الخطوة نحو العالمية في تاريخ هيرودوتس الذي تعدى حدود إقليم اليونان ليتناول الأمم التي كانت في صراع معهم، وإلى جانب ما تيسر لديه من معلومات عن بعض الشعوب الأخرى المجاورة لليونان والفرس وهكذا كتب هيرودوتس تاريخه. وقد مثل ذلك إحدى الأسس التي قام وتطور عليها التوجه نحو كتابة التاريخ العام. وقد ركزت تلك المحاولات المبكرة للكتابة عن التاريخ العالمي على الأحداث المعاصرة ما عدى القليل من المادة التي تعود إلى ما قبل عصر التدوين. ولذلك لم تكن هنالك صعوبة في تناول وسرد الأحداث، ولم تظهر الحاجة إلى تقسيم تلك المادة إلي حقب كما يظهر ذلك في تاريخ هيرودوتس.

ولكن كان الوضع مختلفاً في مكان آخر عند العبرانيين – أو اليهود - قبل عصر هيرودوتس. ومن المعروف أن الشعب اليهودي هم أبناء يعقوب حفيد ابراهيم عليه السلام والمعروف بإسرائيل والذين كانوا يعيشون في مصر منذ عصر يوسف عليه السلام. وقد تكاثر أبناء يعقوب – بنو إسرائيل – في مصر حتى عصر موسى عليه السلام.

والـذي يعنينـا هنـا هـو تـوراة مـوسى التـي تمثـل الخمسـة أجـزاء الأولى مـن العهـد القديـم في الكتـاب المقـدس. فقـد ورد - باختصـار - في بدايـة التـوراة في سـفر التكويـن (1 - 12) قصـة خلـق الكـون وآدم وتناسـل سـلالته حتـى طوفـان نـوح ثـم مـا بعـد الطوفـان حتـى عـصر ابراهيـم عليـه السـلام. ثـم ركـز العهـد القديـم في تاريـخ بنـي إسرائيـل حتـى عـصر آخـر انبيـاء بنـي اسرائيـل عيـسى بـن مريـم عليـه السـلام مـع الاشـارة إلى الشـعوب الأخـرى التـي كان عـلى صلـة ببنـي إسرائيـل خـلال تلـك الفـترة.

كان لهـذه المـادة التاريخيـة في الـكاب المقـدس أثرهـا الكبـير عـلى تطـور علـم التاريخ مـن ناحيـة موضوعـه ومنهـج تناولـه. ويهمنـا هنـا النتائـج التـي ترتبـت عـلى فكـرة تناسـل البـشر مـن أصـل واحـد، والرابـط القـوي لحياتهـم عـلى الأرض ومصيرهـم بعـد المـوت، وسرد تاريـخ كل البـشر معـاً في مـكان واحـد. مثـل هـذه الأفـكار أدت إلى تطـور فكـرة تاريـخ العالـم العـام.

وبـدأ الكتـاب مـن بنـي إسرائيـل يسـيرون عـلى نهـج العهـد القديـم في تناولهـا لتاريـخ العالـم. وبعـد ظهـور المسـيحية ازداد الاحسـاس بتاريـخ العالـم، إذ بينمـا خاطبـت الديانـة اليهوديـة بنـي إسرائيـل فقـط جـاء خطـاب المسـيحية عامّـاً ونظروا إلى المسـيح باعتبـاره مخلـص البشريـة جمعـاء. وأدى ذلـك إلى تطـور ورسـوخ مفهـوم التاريـخ العالمـي.

التقسيم المسيحي:

نتـج عـن تطـورات واتسـاع موضـوع علـم التاريـخ إلى الرجـوع بالأحـداث إلي بدايـة تاريـخ الانسـان عـلى الأرض. وتوفـرت الكثـير مـن المعلومـات عـن تواريـخ الشـعوب وبخاصـة تاريـخ بنـي اسرائيـل كمـا ورد في العهـد القديـم مـن الكتـاب المقـدس، فتطلـب الأمـر تقسـيم تلـك المـادة إلى فـترات تاريخيـة أو عصـور متميـزة عـن بعضها سـواء كان السـبب في ذلـك طـول الفـترة الزمنيـة أو اختـلاف المفاهيـم والمعتقـدات مثـل فصـل فـترات عبـادة الأوثـان وتعـدد الآلهـة مـن فـترة سـيادة التوحيـد. وكان ذلـك بدايـة ظهـور وتطـور فكـرة تقسـيم التاريـخ إلى حقـب.

وقـد تأسـس الفكـر المسـيحي التاريخـي - قبـل عـصر المسـيح - عـلى تـراث بنـي إسرائيـل. فميـزوا بـين تاريـخ بنـي اسرائيـل وبـين العـصر الرومانـي. ونظـروا إلى الفـترة التـي أعقبـت ظهـور المسـيح باعتبارهـا عـصراً متميـزاً عـن العـصر الرومانـي

الوثنـي. وقـد أتضحـت هـذه النظـرة منـذ القـرن السـادس الميـلادي حيـث اعتـبروا ميـلاد المسـيح حـدّاً فاصـلاً في التاريـخ يقسـم التاريـخ العـام إلى قسـمين، قسـم قبـل ميـلاد المسـيح وقسـم قبلـه. ثـم شرع الفكـر المسـيحي يضـع تصـوراً متكامـلاً لتاريـخ العالـم وقسـموه إلى حقـب.

ولـو نظرنـا إلي الأشـكال 2 ، 3 و 4 و 5 أدنـاه وجدنـا ملخصـاً عامّـاً للتصور المسـيحي لتاريـخ العالـم ويلاحـظ عليـه الربـط بـين تاريـخ الكـون وتاريـخ البشرية حتـى ظهـور المسـيحية شـكل رقـم 2. فالتاريـخ لا يبـدأ ببدايـة حيـاة الانسـان عـلى الأرض بـل يبـدأ بمرحلـة أدم في الجنـة التـي تمثـل الحقبـة الأولى مـن حقـب التاريـخ وتمثـل العـصر الذهبـي في تاريـخ الانسـان. . ويلاحـظ عـلى هـذا التقسـيم أنـه اعتـبر كل الفـترة الواقعـة بـين هبـوط آدم وحتـى عـصر المسـيح فـترة زمنيـة واحـدة أطلـق عليهـا العـصر الوثنـي، بينمـا جعـل العـصر المجيـد بعـد ميـلاد المسـيح. بينمـا تبـدأ مدرسـة مسـيحية أخـرى المرحلـة الأولي مـن حقـب التاريـخ مـن مرحلـة آدم في الجنـة وحتـى عـصر وتـؤرخ لـه بنهايـة القـرن الحـادي والعشريـن قبـل الميـلاد شـكل رقـم 3، ثـم تتـوالى فـترات التاريـخ حتـي عـصر لمسـيح الـذي يمثـل الحقبـة السادسـة. ويلاحـظ عـلى هـذا التقسـيم أنـه اعتمـد عـلى الـتراث اليونانـي والرومانـي والفـارسي في تقسـيم الحقـب.

ومـن الواضـح أن وصـف كل الفـترة السـابقة لميـلاد المسـيح بالوثنيـة – باسـتثناء بنـي اسرائيـل – فيـه الكثـير مـن التجـاوز. فالأنبيـاء والرسـل لـم يكونـوا حكـراً عـلى بنـي اسرائيـل، فقـد ذكـر القـرآن بعـض الرسـل لغـير بنـي اسرائيـل مثـل رسـل العـرب هـود وصالـح ورسـول الأكـراد يونـس. وإلى جانـب ذلـك فقـد وضـح اللـه سـبحانه وتعـالي أنـه أرسـل رسـله لـكل البـشر. قـال تعـالى: ﴿ ومـا مـن أمـة ألا خـلى فيهـا نذيـر﴾ 35: 24 وقـال تعـالى: ﴿ ومـا كنـا معذبـين حتى نبعـث رسـولا ﴾ 17: 15 فهـدي اللـه ودين التوحيـد وصـل كل الأمـم عـلى مـدار التاريـخ.

تقسيم حسبي .

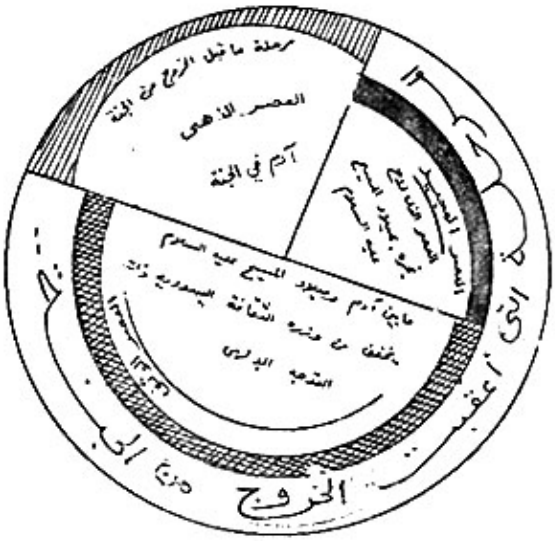

شكل رقم (٢)

المصدر : بارنز ج ١ (ص) ٣٢ و (م ٢) (ص) ١٩٢

المصدر : هذه الأشكال يشير إلى بعض التعديلات أما هذه الأشكال فقد بعثت لزيارة التدريس والزملاء من مركز الدائرة للتعبير عن عقاد الفترات الزمنية .

تقسيم إيزيبيوس بأقدس استفت فيفيرتيه ٢٦٠-٣١٠م

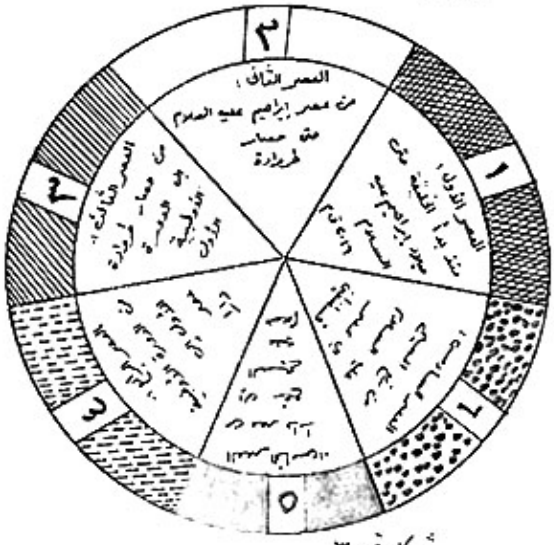

شكل رقم ٣

المصدر : بارنز ج ١ ص ٧١ - ٧٢

تقسيم بوسيه (ب) تاريخ العالم إلى سبعة أقسام

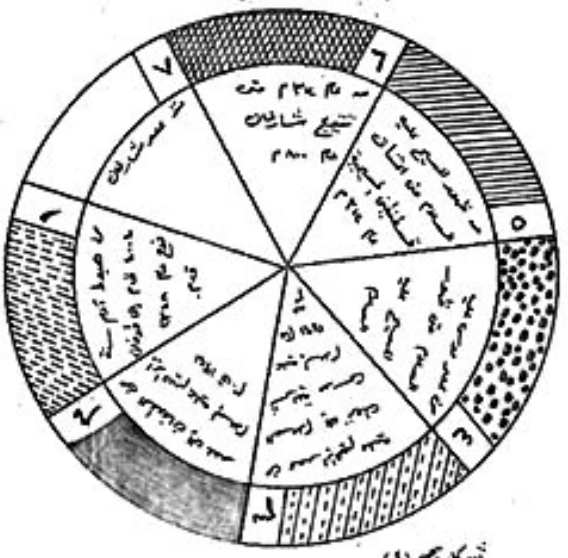

شكل رقم (٤)

المصدر : أحمد محمد صبري ص ١٧٣

تقسيم بوسيه (أ) تاريخ العالم إلى ثلاثة فترات

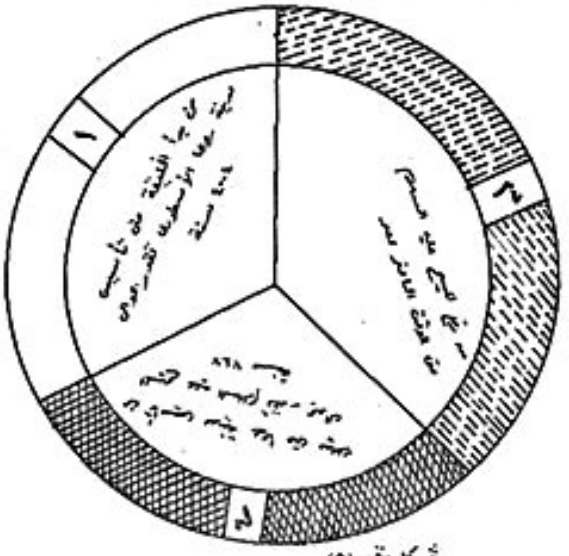

شكل رقم (٥)

المصدر : أحمد محمد صبري ص ١٧٣

التقسيم الثلاثي

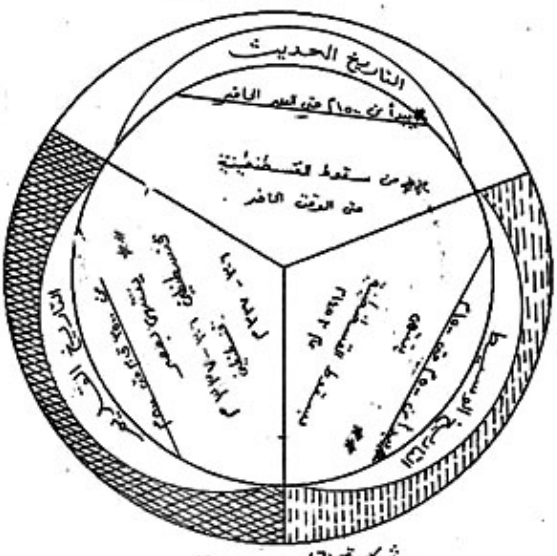

شكل رقم (٦)

المصدر: * Blanchship p.(425)

** بارنز (ج١) (ص) (٣٢)

تقسيم زمني لعلاقة العقل بالطبيعة

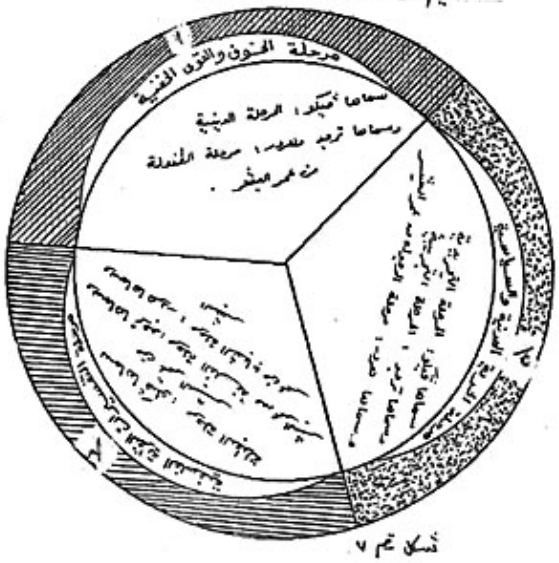

شكل رقم ٧

المصدر: حسن حنفي، مقدمات: ١٠٠ - ١٨٨

8

التقسيم الغربي للتاريخ العالمي العام والتقويم

لـم يبتعـد الفكـر الغربـي الحديـث في بدايتـه – فيمـا يتعلـق بالتحقيـب – عـن الأفـكار السـابقة التـي دارت حـول المسـيح عليـه السـلام. ويمكـن اعتبـار جـاك بوسـيه (1627 – 1704 م) امتـداداً لتلـك الأفـكار. فقـد قسـم تاريـخ العالـم إلى ثلاث حقـب رئيسـة، جعـل الفـترة مـن بـدأ الخليقـة وإلى بدايـة العـصر الرومانـي فـترة واحـدة، ثـم ميـز العـصر الرومانـي باعتبـاره الفـترة الثانيـة، ثـم الفـترة الثالثـة مـن بدايـة عـصر المسـيحية وحتـى زمنـه في مطلـع القـرن السـابع عـشر المرحلـة الثالثـة. شـكل5.

وفي تفصيلـه لهـذه الحقـب اعتمـد بوسـيه عـلى الـتراث العـبري والمسـيحي فوضـع سـبعة أقسـام فرعيـة لتاريـخ العالـم تبـدأ بهبـوط آدم حتـى طوفـان نـوح وجعـل تاريخـه القـرن الرابـع والعشريـن قبـل الميـلاد، ثـم إلى عـصر ابراهيـم في نهايـة القـرن العشريـن قبـل الميـلاد ثـم إلى عـصر مـوسى في بدايـة القـرن الخامـس عـشر قبـل الميـلاد، ثـم إلى عـصر المسـيح ثـم إلى اعتنـاق الامبراطـور قسـطنطين المسـيحية في أول القـرن الرابـع الميـلادي، ثـم إلى تتويـج شـارلمان امبراطـوراً في غـرب أوربـا، والفـترة الأخـيرة منـذ عـصر شـارلمان وإلى عـصر بوسـيه في مطلـع القـرن الثامـن عـشر الميـلادي. شـكل رقـم 4.

وقـد رجـع بوسـيه إلى إحـدى روايـات بدايـة سـفر التكويـن مـن العهـد القديـم فيمـا يتعلـق بتاريـخ هبـوط آدم عـام 4004 ق م، وبالطبـع فـإن هـذا التاريـخ يتعـارض مـع الحقائـق التـي اثبتهـا العلـم والتـي توضـح أن تاريـخ البـشر عـلى الأرض

يرجع إلى أضعاف هذا الرقم، كما إن تاريخه لطوفان نوح يتعارض أيضاً مع الحقائق التاريخية المعروفة في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد في تاريخ بلاد ما بين النهرين وهو بداية عصر الأكديين ذوي التاريخ المدون الذي لم يشهد الطوفان. والطوفان في تراث بلاد ما بين النهرين حدث في عصور مبكرة قبل بداية العصور التاريخية لبلاد ما بين النهرين.

ويلاحظ على هذا التقسيم أنه امتد بالعصر المسيحي حتى مطلع القرن الثامن عشر تاريخ وفاة بوسيه ولم يشر إلى بداية العصر الحديث في أوربا وهي الفكرة التي بدأت تسود أوربا منذ عصر بوسيه. فقد بدأ كثير من المفكرين في أوربا ينظرون إلى العصر المسيحي باعتباره فترة متميزة قائمة بذاتها حكمها الاقطاع وتسلطت فيها الكنيسة وساد الظلام أوربا، وبدأ التغير ببداية عصر تجارة المحيطات أطلقوا عليها (long distant trade) وحركات الاصلاح الديني فاعتبر ذلك بداية لمرحلة جديدة في التاريخ الاوربي اطلقوا عليه العصر الحديث. وترتب على هذا ظهور تحقيب قسم تاريخ العالم إلى ثلاث حقب بدأت ببداية الحضارات القديمة وانتهى باعتناق قسطنطين المسيحية في بداية القرن الرابع الميلادي، وكان ذلك بداية لدخول أوربا في عصر مظلم لم تفق منه إلا في القرن الخامس عشر الذي مثّل بداية العصر الحديث. وعرفت الفترة المتوسطة بين بداية القرن الرابع والقرن الخامس عشر بفترة العصر الوسيط. شكل رقم 6.

ولم تعد تقسيمات تاريخ العالم مواكبة للمعلومات التاريخية التي توفرت حتى بداية القرن الثامن عشر، بالاضافة إلى التحولات الفكرية وسيادة عصر التنوير الذي يطلقون عليه عصر العقل، وقد أدى كل ذلك إلى مراجعة التقسيمات القديمة لتاريخ العالم. فإذا نظرنا إلى وجهة نظر ثلاث من مفكري القرن الثامن عشر في هذا الميدان وجدنا توجهاً وأسلوباً مغايراً ليس فقط للأفكار القديمة بل ولأفكار القرن السابع عشر أيضاً. ففي شكل رقم 7 نظر كل من فيكو (ت 1744 م) وترجو (ت 1781 م) وهردر (ت 1802 م) إلى تاريخ العالم وفقاً لعلاقة العقل بالطبيعة وتغيرها فقسموه إلى ثلاث حقب متميزة:

1. مرحلة الخوف والقوى الخفية: اعتمد تفسير الظواهر الطبيعية فيها على القوى الخفية ، وكان الخوف مسيطراً على عقل الانسان مما دفعه إلى التدين والخضوع لسيطرة رجال الدين.

2. مرحلة التفسيرات النظرية الفلسفية: حلت في هذه المرحلة التفسيرات النظرية والفلسفية لظواهر الطبيعة محل القوى الخفية، وبدأ العقل يحل محل الايمان، وخرج الانسان من رق الدين إلى الرق البشري.

3. مرحلة الحرية المدنية والسياسية: فُسرت فيها الظواهر الطبيعية بعللها المباشرة من أجل الكشف عن القوانين التي تخضع لها.

ولم يكتب لهذا التقسيم الانتشار، وظهرت في خلال القرن التاسع عشر بعض الأفكار الجديدة نحو تحقيب التاريخ العالمي لعل أشهرها التقسيم الماركسي الذي حقب التاريخ من خلال النظر إلى توزيع الانتاج والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي ارتبطت به عبر التاريخ. رأى الماركسيون أن المراحل المبكرة من تاريخ البشرية قد بدأت في شكل مشاعيات أو مجتمعات شيوعية صغيرة يتعاون أفرادها على توفير الغذاء وتقسيمه بينهم. وقد بدأت هذه المرحلة في المجتمعات الشرقية وتطورت ثم ركدت وتلتها المجتمعات الغربية التي تطورت مؤخراً.

التقسيم الثلاثي

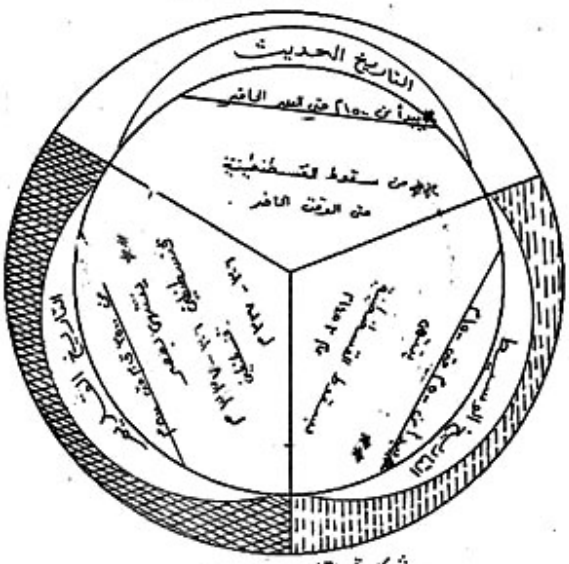

شكل رقم (٦)

المصدر : * Blankinship p.(425)

** بارنز (ج١) (ص) (٣٢)

تقسيم زيفا لعلاقة العقل بالطبيعة

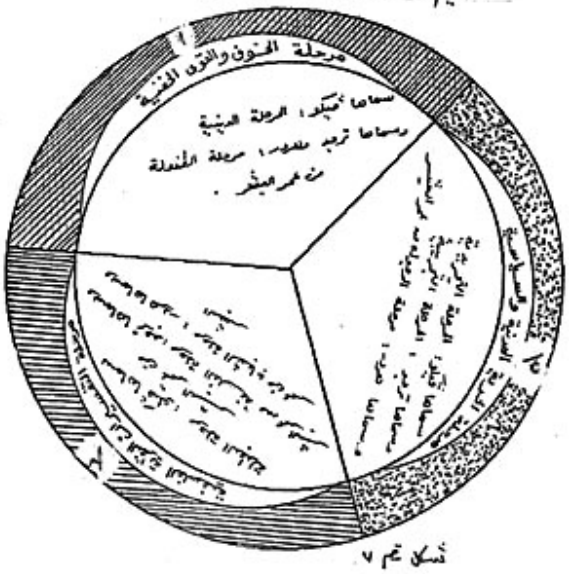

شكل رقم ٧

المصدر : حسن حنفي ، ديكارت : ١٠٠ - ١٨٨

وانتقلت المجتمعات من مرحلة الشيوعية المبكرة إلى مرحلة الملكية الفردية فظهر نمط الانتاج العبودي أو مرحلة الرق ويطلق عليه نمط الانتاج الآسيوي. وتلاه نمط الانتاج الاقطاعي أو مرحلة القنية، ثم تطور الانتاج إلى النمط الرأسمالي أو مرحلة الاجارة. شكل رقم 8. ثم بدأ التطور نحو النمط الاشتراكي الذي تنبأوا بأنه سيسود المجتمعات مؤدياً في النهاية إلى قمة تطور علاقات الانتاج في المجتمع الشيوعي.

ولم يكتب لهذا التقويم الانتشار الواسع وظل الغرب يواصل البحث عن تحقيب عام يفي بكل التصورات المطلوبة. وتوجهت بعض الدراسات نحو ربط التقويم بتاريخ الكون كله دون الارتباط فقط ببداية ظهور الانسان على الأرض. وجاء التقسيم في اربعة فترات، غطت الثلاث فترات الأولى التعرف على امتداد الكون والعصور الجليدية وبداية الحياة. وتناولت الفترة الأخيرة تاريخ الانسان. شكل رقم 9.

غير أن أغلب الأفكار والدراسات الغربية اللاحقة اتجهت نحو تحقيب تاريخ العالم منذ بداية ظهور الانسان على الأرض. ولم تبتعد تلك الدراسات عن الأفكار السابقة، بل اتجهت نحو تعديلها بصورة تتمشى مع المادة التاريخية التي تم اكتشافها وجمعها وبخاصة في حقل التاريخ المبكر لحياة الانسان، ومع الأفكار والمفاهيم الجديدة للكون والحياة وبخاصة فيما يتعلق بأصل الانسان وتطوره. والتحقيب الذي وجد قبولاً كبيراً وانتشر بصورة واسعة هو التقسيم الثنائي الذي عدل التقسيم الثلاثي الذي رأيناه في شكل رقم 6.

ولأن هذا التقسيم هو الأكثر شهرة واستخداماً في كل العالم الآن سنتعرض إليه بايجاز. فقد بدأ الباحثون في أوربا دراسة تاريخ البشرية للتوصل إلى معرفة القوانين الطبيعية التي تتحكم وتُوَجه حياة الانسان على الأرض. وقد تأثر هذا التقسيم بعوامل أهمها: 1. مفهوم التطور العام في الطبيعة. 2. المفهوم العام لقانون الطبيعة المحرك لكل ما في الكون 3. رفض ما ورد في الكتاب المقدس عن خلق آدم وبداية تاريخ البشر على الأرض. 4. تركز البحث فيه على التاريخ الأوربي لقلة معرفة الاوربيين في ذلك الوقت بتاريخ وحضارات الشعوب الأخرى خارج أوربا.

بدأ الباحثون التنقيب في تاريخ العالم وتاريخ أوربا السابق وتعرفوا على مراحل حضارية متعاقبة انتهت بالحضارة اليونانية والرومانية. ونظروا إلى المراحل

المبكـرة مـن حيـاة الانسـان قبـل التوصـل إلي معرفـة الكتابـة وتدويـن تجاربـه باعتبارهـا فـترة سـابقة لبدايـة مرحلـة الحضـارة فأطلقـوا عليهـا عصـور مـا قبـل التاريـخ. وعرفـوا الفـترة التـي بـدأت بالتوصـل إلى معرفـة الكتابـة بالعصـور التاريخيـة. فانقسـم التاريـخ إلى عصـور تاريخيـة وعصـور مـا قبـل التاريخ. وقسـموا العصـور التاريخيـة إلى أربعـة حقـب هـي: العـصر القديـم والعـصر الرومانـي والعـصر الوسـيط ثـم العـصر الحديـث. (شـكل رقـم 10)

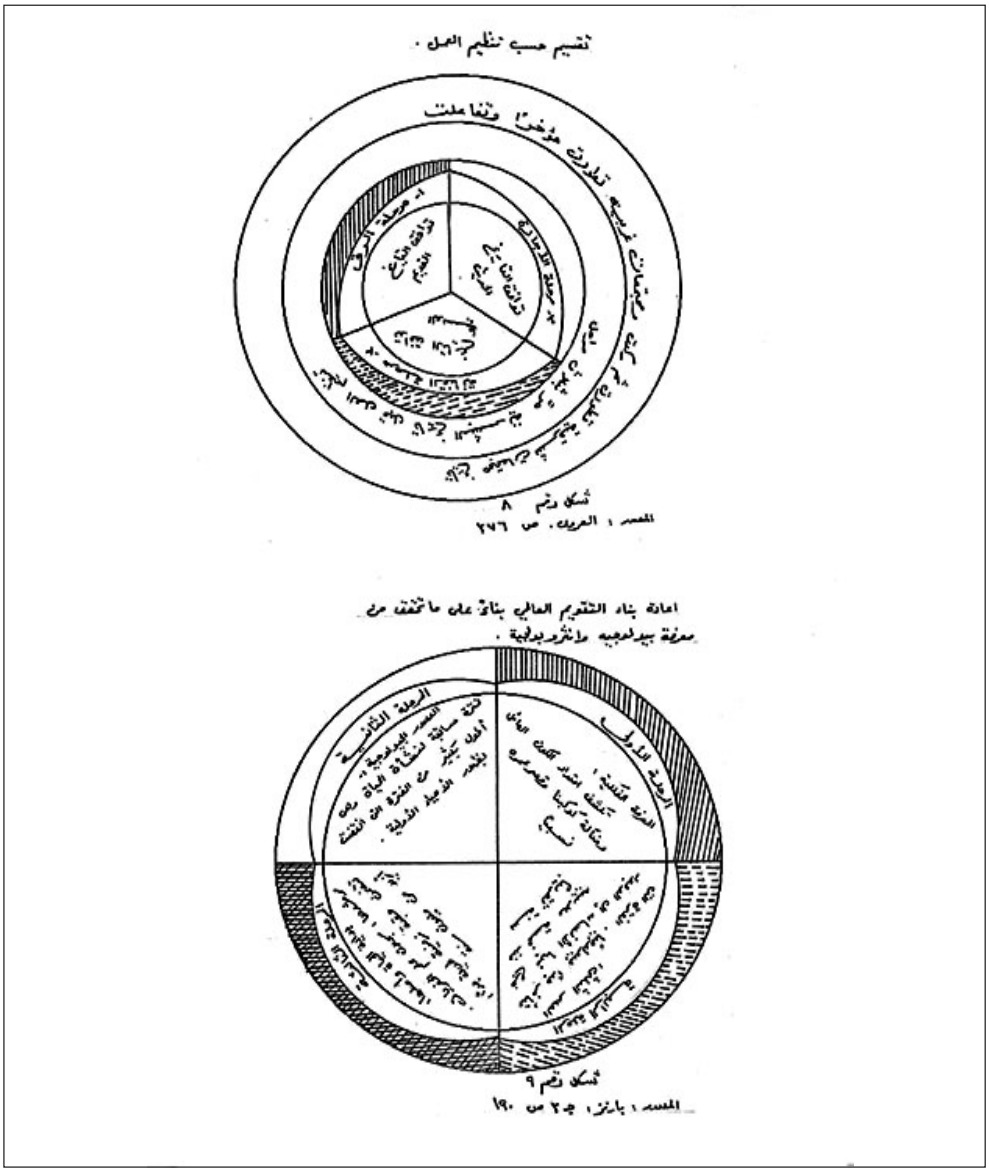

تمثيل التقسيم الثلاثي

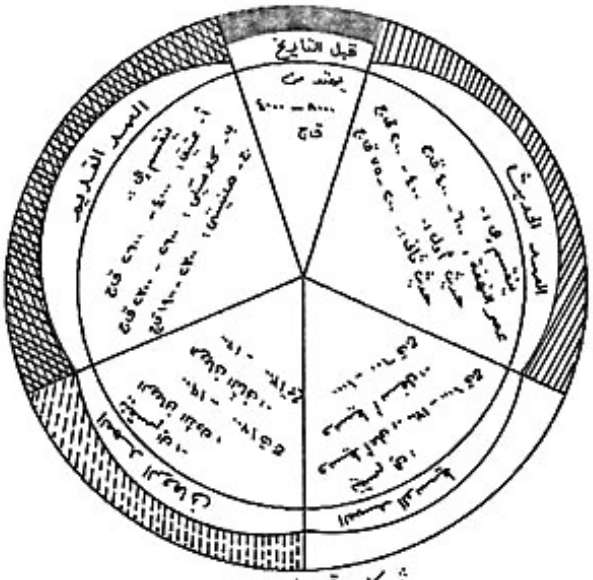

شكل رقم ١٠

المصدر : العروي من ٢٧٤ - ٢٧٥

تمثيل التقسيم الثلاثي

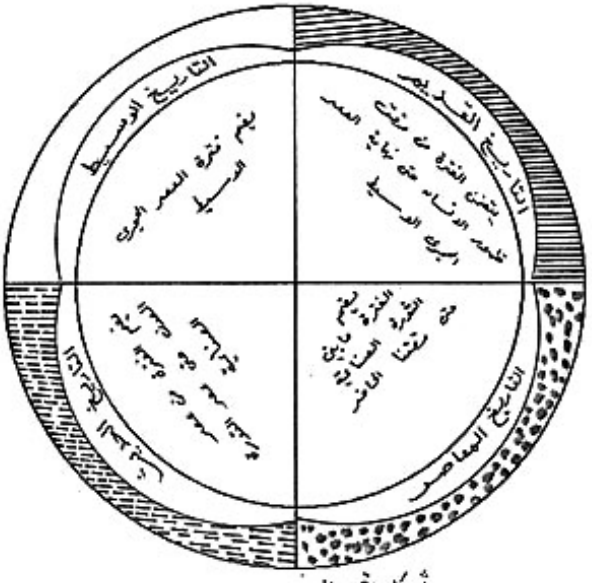

شكل رقم ١١

المصدر : بارنز ، ج ٢ ص ١٩٣

ويلاحظ أن التواريخ التي حددت بداية ونهاية الفترات غير دقيقة وثبت عدم صحتها. فمرحلة ما قبل التاريخ رغم أنها بدأت بنحو ألفين سنة قبل التاريخ الذي جاء في العهد القديم واستخدمته التقسيمات السابقة إلا أن المعطيات الآثارية أثبتت وجود الانسان بشكله الحالي قبل قرون كثيرة سابقة لهذا التاريخ. وقد استخدم هنا مصطلح ق.ح. ويعني قبل الحاضر. كما وإن التواريخ الأخرى تعوزها الدقة أيضاً، وعلى سبيل المثال فإن العصر التاريخي الذي يبدأ بالعصور القديمة قد جعلت بدايته قبل 4000 سنة فقط أي نحو سنة 2000 ق م. وهذا لا يتفق مع الحقائق التاريخية عن العالم القديم. وقد ظهر تقسيم آخر ربط بين عصر ما قبل التاريخ والعصور التاريخية، وقسم تاريخ العالم - اعتماداً على أدوات الانتاج - إلى أربعة حقب: قديم ووسيط وحديث ومعاصر. (شكل رقم 11)

وأخيراً طور الأوربيون التقسيم الواسع الانتشار والذي يستخدم اليوم – تقريباً - على مستوي العالم أجمع ذلك هو التقسيم الثنائي الذي يقسم تاريخ العالم إلى عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية. ويقسم كل فترة إلى ثلاث أقسام: عصور ما قبل التاريخ إلى حجري قديم وحجري وسيط وحجري حديث، والعصور التاريخية إلى قديم ووسيط وحديث. ولأهمية هذا التحقيب سنتناوله بشيء من التفصيل لمعرفة كيف تم التوصل إليه وما هي الأفكار التي تأسس عليها.

توجه بحث الأوربيين إلى التعرف على الانسان قبل بداية عصوره الحضارية، وحاولوا الإجابة على الأسئلة المتعلقة ببداية ظهوره على الأرض ومسيرته عبر التاريخ حتى بلغ مرحلته الحضارية. ولما كان الفكر السائد بين الباحثين في ذلك الوقت هو مفهوم التطور، فقد تطورت المفاهيم التي ربطت بين الإنسان والطبيعة، فنظر الباحثون إلى الإنسان باعتباره ابن الطبيعة وُلد ونَشأ وتطور عليها.

بدأ البحث في عالم الطبيعة عن تاريخ الإنسان المبكر فوجدوا كثيراً من المواد مثل الهياكل العظمية والجماجم والمواد المتحجرة والكثير من الأدوات الحجرية وغيرها. وقضى الباحثون سنوات عديدة في جمع تلك المادة، ثم شرعوا في دراستها وتصنيفها. ولاحظ الباحثون أن تلك الهياكل وباقي المواد العظمية تختلف عن الهياكل العظمية للقرود وفي نفس الوقت تختلف أيضاً عن الهيكل العظمي للإنسان الحالي. ولاحظوا أيضاً أن تلك الهياكل العظمية ليست كلها

متشـابهة تمامـا بـل توجـد الكثـير مـن الفـروق بينهـا، فصنفوهـا إلى مجموعـات متشـابهة. وبعـد الدراسـة المتأنيـة والفحـص ربطـوا بـين تلـك الهيـاكل والبـشر الحاليـين.

وربـط الباحثـون بـين تلـك الأثـار العظميـة وبـين الأسـلاف المبكـرة للإنسـان الحـالي. وخرجـوا بفرضيـة أنـه في وقـت مـا في المـاضي نحـو خمسـة مليـون سـنة ظهـرت فصيلـة جديـدة في عالـم القـرود، وبـدأت تلـك الفصيلـة في التطـور حتـى ابتعـدت في تركيبتهـا الطبيعيـة عـن القـردة، وبمـرور الزمـن ومـع التغـيرات المناخيـة المختلفـة التـي عاشـتها تلـك المخلوقـات - أو أسـلاف البـشر المبكريـن - حـدث لهـا الكثـير مـن التطـور لعـل أهمـه أولاً: مقدرتهـا عـلى السـير عـلى قدمـين بـدلاً مـن السـير عـلى القدمـين واليديـن مثـل آبائهـا القـردة، وقـد أدي هـذا التطـور إلى تـرك الغابـة والحيـاة عـلى الأرض فبـدأت حياتهـم في التطـور والتكيـف مـع بيئتهـم الجديـدة.

والتطـور الثانـي الهـام لتلـك المخلوقـات هـو زيـادة حجـم المـخ، فقـد كان حجـم مـخ ذلـك المخلـوق في البدايـة عنـد انفصالهـا مـن عالـم القـرود صغـيراً بالقيـاس إلى حجـم مـخ الانسـان الحـالي، فقـد كان نحـو 350 سـم مكعـب. وبعـد نحـو مـا يقـرب مـن الخمسـة ملايـين سـنة زاد حجـم مـخ تلـك المخلوقـات تدريجيـاً حتـى بلـغ أكثـر مـن 1000 سـم مكعـب. وافترضـوا أنـه بذلـك ظهـر الإنسـان العاقـل (homo sapiens)، ونمـى المـخ بعـد ذلـك حتـي بلـغ متوسـط حجـم مـخ الإنسـان الحـالي.

ووفقـاً لهـذا التصنيـف تأسسـت الفرضيـات الأخـري المتعلقـة بالتطـور الاجتماعـي والثقـافي. وقسـمت الأدوات الحجريـة التـي تـم جمعهـا إلى مجموعـات حسـب دقـة صناعتهـا، باعتبـار أن تلـك المخلوقـات حسـنت أدواتهـا كلمـا ازداد حجـم مخهـا. فصنفـت في ثـلاث مجموعـات رئيسـة. فـالأدوات الأكثـر بدائية افـترض أن اسـتخدامها تـم في العصـور المبكـرة مـن عمـر تلـك المخلوقـات عرفـت بالمـواد الحجريـة القديمـة وأطلـق عـلى تلـك المرحلـة «العصـور الحجريـة القديمـة»، والأدوات الأدق صنعـاً تـم انتاجهـا بعـد اكتمـال مـخ تلـك المخلوقـات وعرفـت بـالأدوات الحجريـة الحديثـة وأطلـق عـلى تلـك المرحلـة «العصـور الحجريـة الحديثـة»، وأخـرى بـين هاتـين المجوعتـين عرفـت بـالأدوات الحجريـة الوسـيطة وأطلـق عليهـا «العصـور الحجريـة الوسـطى».

ورأى الباحثـون أنــه باكتمــال حجــم مــخ تلــك المخلوقــات واكتمــال تطــور هياكلهــا العظميــة ظهــر الإنســان الحــالي عــلى الأرض. غــير أن ذلــك الأنســان عــاش حيــاة بدائيــة متوحشــة لآلاف الســنين قبــل أن يتمكــن مــن تحســين أوضاعــه، ولــم يعتــبروا تلــك الحيــاة جــزءاً مــن تاريــخ البــشر لبدائيتهــا فأصبحــت جــزءاً مــن عصــور مــا قبــل التاريــخ. ورأى بعــض الباحثــين أن العصــور التاريخيــة للإنســان بــدأت عندمــا تمكــن الإنســان مــن التوصــل إلى معرفــة الكتابــة، ورأى آخــرون أن العصــور التاريخية بــدأت عندمــا بــدأ الإنســان انتــاج طعامــه أي بعــد أن توصــل إلى اســتئناس الحيــوان والزراعــة، وقــد تــم كل ذلــك منــذ نحــو عــشرة ألــف ســنة.

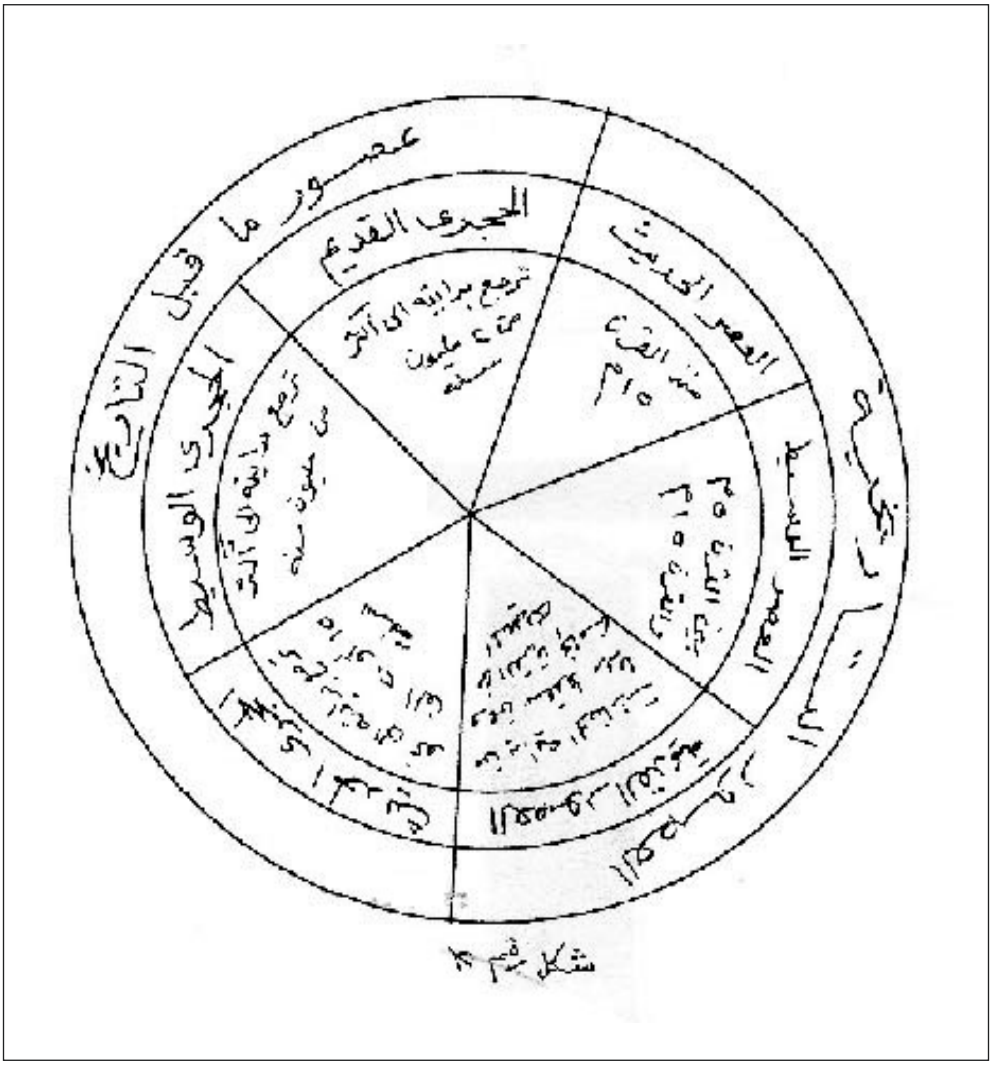

وهكـذا أدى كل ذلـك بالباحثـين الأوربيـين إلى تقسـيم تاريـخ العالـم إلى عصـور مـا قبـل التاريـخ والعصـور التاريخيـة، امتـدت عصـور مـا قبـل التاريـخ مـا يقـرب مـن الخمسـة ملايـين سـنة بينمـا بـدأت العصـور التاريخيـة منـذ آلاف قليلـة وقسـموا العصـور التاريخيـة إلى ثـلاث أقسـام أيضـاً اسـتناداً إلى التاريـخ الأوربـي. فقـد تعرفـوا عـلى التاريـخ اليونانـي والرومانـي ورأوا كيـف كانـت الأوضـاع الحضاريـة متطـورة في أوربـا حتـى نهايـة العـصر الرومانـي في القـرن الخامـس الميـلادي.

ولاحظـوا دخـول أوربـا في عـصر اضطـراب وتدهـور بعـد القـرن الخامـس الميـلادي وانطفـأ نـور الحضـارة لمـدة ألـف سـنة تحـت سـيطرة الاقطـاع وهيمنـة الكنيسـة. ثـم بـدأت أوربـا تفيـق مـن ذلـك الثبـات ودخلـت مرحلـة جديـدة في تاريخهـا منـذ القـرن الخامـس عـشر الميـلادي واعتـبروا هـذه الفـترة بدايـة تاريـخ جديـد لأوربـا، فأطلقـوا عليهـا العـصر الحديـث واطلقـوا عـل الفـترة الرومانيـة ومـا قبلهـا العصـور القديمـة، أمـا فـترة مـا بـين العصريـن القديـم والحديـث فأطلقـوا عليهـا العـصر الوسـيط. (شـكل رقـم 12) وهكـذا تأسـس هـذا التقسـيم أولاً عـلى مفهـوم التطـور في عصـور مـا قبـل التاريـخ وثانيـاً عـلى أحـداث التاريـخ الأوربـي في العصـور التاريخيـة.

التقويـم:

عندمـا بـدأ تدويـن الأحـداث التاريخيـة في العالـم القديـم كمـا عنـد قدمـاء المصريـين أو شـعوب مـا بـين النهريـن بـدأوا يربطـون الأحـداث بفـترات حكـم الملـوك، فيسـجلون الحـدث مثـلاً في السـنة الخامسـة مـن حكـم الملـك حمورابـي، وتبـدأ فـترة جديـدة باعتـلاء ملـكٍ جديـد. وتسـجل الأحـداث أيضـا بالرجـوع إلى الوقائـع الكـبرى فقـد اسـتخدم اليونانيـين أحـداث حـروب طـروادة وحـروب الاسـكندر الأكـبر أساسـاً حسـبوا منـه الزمـن، ورجـع اليونانيـين في توقيتهـم إلى تأسـيس مدينـة رومـا الاسـطوري الـذي يرجعونـه عـادةً إلى عـام 730 ق. م. ففكـرة الرجـوع إلى حـدث واحـد والرجـوع بالأحـداث اليـه في نطـاق زمنـي متصـل ومتسلسـل تطـورت في تـراث بنـي اسرائيـل والـتراث المسـيحي.

مـع تطـور الحـس التاريخـي لشـعوب العالـم القديـم بـدأت فكـرة ربـط الأحـداث بزمـن محـدد، وقـد رجعـت تلـك الشـعوب في عصورهـا المبكـرة إلي اتخـاذ الأحـداث الهامـة لتأريـخ مـا يـودون الرجـوع إليـه. فبـدأ التأريـخ ببدايـات حكـم الملـوك أو بربطهـا بالأحـداث الطبيعيـة الكبـيرة مثـل الـزلازل أو الحـروب. فعـلى سـبيل المثـال

أرخ قدماء المصريين ببداية حكم ملوكهم، فيؤرخون الحدث – مثلاً – بالسنة الأولى أو العاشرة من حكم الملك، ثم يبدأون دورة جديدة عندما يلي العرش ملك جديد. وقد استخدم اليونانيون القدماء أساساً لتأريخ الأحداث وحساب الزمن، ورجع العرب في العقود الأخيرة السابقة لظهور الاسلام إلى عام الفيل.

كما تطور حساب الزمن منذ بداية الحضارات القديمة واشتهرت شعوب بلاد ما بين النهرين وقدماء المصريين والصينيين والهنود بتطور أنظمة تقاويمهم التي أعتمد بعضها على الشمس كما عند قدماء المصريين وعرف بالتقويم الشمسي وطول سنتها 365 ¼ يوم، واعتمد بعضها الآخر على القمر كما عند قدماء الصينيين واليهود والعرب. وعرف بالتقويم القمري وطول السنة فيه 354 يوم. وهكذا كان لكل أمة من الأمم القديمة تقويمها الخاص الذي يرتبط بالأحداث المتجددة.

وقد تطورت فكرة ربط الأحداث بزمن معين يبدأون منه العد لتأريخ الأحداث بين شعوب العالم القديم، ولازال لبعض تلك الشعوب تقاويمها الخاصة مثل الإيرانيين والصينيين والهنود يستخدمونها إلي جانب التقويم المشهور والواسع الانتشار والمعروف بالتقويم الميلادي. وقد تطور التقويم الميلادي بعد ظهور المسيحية حيث نظر المسيحيون المبكرون إلى ميلاد المسيح كبداية لعصر متميز. وبدأ كتابهم منذ القرون يستخدمونه في حساب زمن أعيادهم. وقد اعتمدت حسابات هذا التقويم على الشمس.

وقد تأسس حساب السنة في هذا التقويم علي ما توصلت إليه الشعوب القديمة وبخاصة المصريين وتم تعديل حساباته في عصر الامبراطور الروماني يوليوس قيصر Julius Caesar الذي ثبت طول السنة بـ 365 ¼ يوم. ولذلك يشار إلى هذا التقويم في بعض الأحيان بتقويم اليوليان Julian Calendar. ثم أعيدت حسابات السنة لهذا التقويم وتم تعديله في القرن السادس عشر في عهد البابا جرجوري (Gregory) الثالث عشر ذا السنة الكبيسة كل أربعة سنوات، وقد عرف بالتقويم الجرجوري وهو التقويم الذي نسير عليه اليوم.

أما بدايات ربط هذا التقويم بميلاد المسيح وبداية تطور فكرة العصر المسيحي فترجع إلي القرن الثامن الميلادي. فقد أعد القس ديونيسيوس Dionysius جداول أعياد عيد الفصح راجعاً في حسابه إلى عصر الامبراطور الروماني ديو كليتان Diocletian وقد حدد ديونيسيوس جدوله بأنه في عصر

المسيح عليه السلام وعبر عن ذلك باللاتينية (Anni Domini Nostri Jestu Christi) وتعني في سنة سيدنا المسيح. وهكذا دخل مصطلح (Anni Domini ويشار إليه باختصار A.D. وتعرف بالإنجليزية (In the Year of our Lord

وفي القرن الثامن الميلادي بدأ المؤرخون في بريطانيا يرجعون بحسابات الزمن إلي عصر ميلاد المسيح A.D. ثم أشير إلى الفترة السابقة لعصر المسيح بـ Before Christ وتختصر بـ B.C. وهكذا دخل المصطلحين في الاستخدام العام، وقد تم أخيراً تغيير المصلحين فأصبح يرجع إلى الفترة المسيحية بـ C E وعرفت بـ Common Era بدلاً من A D، ورجع إلى فترة ما قبل ميلاد المسيح B C بـ Before Common Era واختصارها B C E.

ورغم تغيير المصطلح واعطائه الطابع العام نسبة لعمومية الاستخدام إلا أنه يظل تقويماً مسيحياً يجعل من ميلاد المسيح عليه السلام حداً فاصلاً بين عهدين في تاريخ العالم. وقد بدأ بعض المؤرخون في السنوات الماضية استخدام مصطلح جديد وذلك بالرجوع إلى الأحداث التاريخية بدءاً من الحاضر فيؤرخون مثلاً لحدث ما بأربعة ألف سنة قبل الحاضر (Before Present) ويختصرونه بـ B P ويقابل ذلك الألف الثاني قبل الميلاد.

9

البحث واختيار موضوعه

ما هو البحث:

البحث بصورة مبسطة هو مجموعة من العمليات المعينة التي يتبعها الباحث في دراسته لموضوع ما من أجل الوصول إلى هدف أو أهداف محددة. والعمليات التي ينبغي على الباحث اتباعها هي ما نسميه منهج البحث. وقد ذكرنا سابقاً أنه لكي تكون دراسة التاريخ دراسة جادة (علمية) ينبغي أن يراعى فيها قواعد منهج البحث التاريخي.

ويمكن تقسيم البحث - من حيث موضوعه - في مجال التاريخ إلي قسمين: الأول البحث الوصفي وهو في الغالب موضوعاً يتناول فترة زمانية ومكانية طويلة ومتسعة أو يتناول البحث فترة قصيرة زمانيّاً أو مكانيّاً ولكن تتوفر فيها المعلومات. فيقوم الباحث في الحالة بجمع المادة عن موضوعه ويصف الظاهرة المراد دراستها بصورة عامه. وهذا النوع من البحث لا يساعد الباحث في الوصول إلي نتائج من بحثه. ويعرف هذا النوع من البحث باسم البحث الأفقي حيث يقوم الباحث بالسير أفقيّاً مع معلومات البحث التي جمعها. ويعتبر هذا النوع من الأبحاث تدريباً للباحثين في المراحل المبكرة من إعداد الباحثين.

والنوع الثاني من البحث هو ما يعرف بالبحث الرأسي وهو في الغالب يتناول موضوعاً زمانيَاً ومكانيّاً أو يتناول جزئية صغيرة يقوم الباحث بجمع شتات المعلومات عنها والغوص في تلك المعلومات تحليلاً وتفسيراً ومقارنة من أجل الوصول إلى نتائج محددة. ويعرف هذا البحث بالبحث الأصيل Original

Research وهـذا النـوع مـن البحـث يقـوم بـه طلبـة الدراسـات العليـا. ولذلـك فـإن مـا نكتبـه هنـا يتنـاول المعلومـات الأساسـية التـي تسـاعد الـدارس الجامعـي في إعـداد بحثـه.

إختيار موضوع البحث:

مـن المستحسـن أن يختـار الـدارس – بالتعـاون مـع أسـتاذه – موضـوع بحثـه في الفـترة الزمنيـة أو الموضوعـات التـي تسـتهويه ويحـب الاطـلاع فيهـا، لأن الباحـث كلمـا كان محبّـاً للحقـل أو المجـال الـذي يبحـث فيـه كلمـا سـاعده ذلـك في إعـداد بحثـه بصـورة طيبـة. والبحـث في هـذه المرحلـة قـد يكـون موضوعـا صغـيراً مكمـلاً للمقـرر المطـروح ويمثـل نسـبة بسـيطة مـن الدرجـة النهائيـة مثـلاً 15%، وفي هـذه الحالـة قـد يعـرض الأسـتاذ عـلى طلبتـه مجموعـة مـن الموضوعـات المكملـة أو المسـاعدة لفهـم موضوعـات المقـرر الـذي يدَرّسـه فـلا يواجـه الـدارس مشـكلة اختيـار الموضـوع.
وقـد لا يعـرض الاسـتاذ موضوعـات للبحـث لكنـه يسـاعد الدارسـين في اختيـار موضوعاتهـم. وقـد يختـار الـدارس موضـوع بحثـه بنفسـه ثـم يعرضـه عـلى أسـتاذه، وينبغـي عـلى الـدارس التأكـد مـن وجـود عـدد مـن المراجـع – نحـو سـتة مراجـع – أو بعـض المصـادر لـو توفـرت. وليـس مـن الـضروري أن تتوفـر كل الكتـب التـي يريدهـا في مكتبـة قسـمه أو كليتـه وعـلى الطالـب البحـث عنهـا في مكتبـة جامعتـه أو في مكتبـات الجامعـات الأخـرى القريبـة منـه، وفي هـذه الحالـة يأخـذ الطالـب خطـاب مـن قسـمه موجهـاً إلى المكتبـة التـي يريـد الذهـاب إليهـا يُطلـب فيـه السـماح لـه باسـتخدام تلـك المكتبـة. وسـيجد الـدارس القبـول والمسـاعدة في المكتبـة المطلوبـة.
ويختلـف بحـث التخـرج مـن الموضوعـات الصغـيرة المكملـة لإحـدى مـواد الدراسـة. فبحـث التخـرج يعتـبر مقـرراً قائمـاً بذاتـه، ولذلـك ينبغـي التركيـز عليـه كثـيراً، ويكتسـب بحـث التخـرج في أغلـب الأحيـان أهميـة خاصـة لـدى الدارسـين. فهـو أول عمـل بحثـي كبـير يقـوم الـدارس بإعـداده في مرحلـة الدراسـة الجامعيـة، ويقـدم فيـه الـدارس جهـداً وعمـلاً يختلـف عـن نشـاطاته في المقـررات الدراسـية الأخـري. وغالبـا مـا يحتفـظ الـدارس ببحـث التخـرج لسـنوات بعـد تخرجـه، وقـد طبـع بعـض الدارسـين أبحـاث تخرجهـم ووضعوهـا في المكتبـات للاسـتفادة منهـا لأنهـا كانـت بحوثـاً قيمـة يعتـز بهـا أصحابهـا.
كل ذلـك يدفـع الـدارس إلي ضرورة الاهتمـام ببحـث التخـرج سـواء في اختيـار موضوعه أو إعداده.

10

المصادر والمراجع

كيف تبحث عن الكتاب ؟

بعد اختيار الموضوع تأتي مرحلة البحث عن المصادر والمراجع، وقد تعرفنا فيما سبق على المراجع والمصادر، وقلنا إن المصدر هو العمل أو الأثر أو الكتابة التي ترجع مباشرة إلى زمان الحدث، وذكرنا أن مصادر التاريخ متعددة ومتنوعة ومختلفة باختلاف العصور والحقب التاريخية. وقلنا إن المرجع هو الكتب والمؤلفات التي اعتمدت على المصادر الأساسية في جمع معلوماتها أو الكتب غير المعاصرة للأحداث التي كتبت عنها.

ومن المراجع الهامة بالنسبة للباحثين الدوريات، وهي مجلات متخصصة تصدرها الجامعات ومراكز البحوث وغيرها من المعاهد العلمية المتخصصة. وتصدر هذه المجلات بصورة دورية قد تكون ربع سنوية أي أربع أعداد في العام، وقد تكون ثلاث أعداد أو عددين أو عدداً واحداً في العام وفقاً لسياسة كل مؤسسة. ويوجد عدد من الدوريات التي تصدرها جامعة الخرطوم مثل «مجلة كلية التربية» التي تصدر مرتين في السنة، ومجلة الدراسات السودانية التي يصدرها معهد الراسات الافريقية والآسيوية ومجلة كلية الآداب.

والمادة الواردة في الدوريات تعتبر معلومات قيمة لأن الدوريات في العادة تنشر المستجدات في العلوم وتناقش القضايا الهامة وتعكس آراء الخبراء والمتخصصين في كل المجالات، ولذلك كان الرجوع إليها مفيداً وضرورياً للباحثين. كما تمثل المجلات والصحف اليومية أو الاسبوعية مراجعاً هامة سواء للأحداث المعاصرة لها أو للأحداث السابقة. وفي كثير من الأحيان تعتبر الصحف والمجلات مصادراً أولية أو ثانوية لبعض المعلومات المعاصرة لها. فالصحف أو المجلات قد تنشر

تقاريـر دوريـة للـشركات أو المؤسسـات أو قـد تنـشر الخطابـات الدوريـة للمؤسسـات أو مـداولات المجالـس التشريعيـة، فمثـل هـذه المعلومـات تمثـل مصـادراً أساسـية للموضوعـات التـي تناولتهـا.

والخطـوة التاليـة فيمـا يتعلـق بالمصـادر والمراجـع هـي إعـداد الباحـث قائمـة بالمصـادر والمراجـع التـي يـود الاطـلاع عليهـا. ويتبـادر سـؤال هنـا هـل يعـرف الباحـث كيـف يتحصـل عـلى مـا يريـده مـن مصـادر ومراجـع؟ وقبـل ذلـك هـل للباحـث فكـرة أو علـم بعناويـن بعـض مصـادره أو مراجعـه أم لا؟ فـإذا كان لـه علم بهـا يمكـن إعـداد قائمتـه، ويعتمـد عـدد المراجـع والمصـادر في قائمتـه عـلى نـوع البحـث. فلـو كان بحـث تخـرج يمكـن أن يكتفـي في البدايـة بمصـدر أو مصدريـن وبنحـو خمسـة أو سـتة مراجـع.

وعندمـا يرجـع الباحـث إلى قائمـة المراجـع والمصـادر في آخـر الكتـب التـي يعرفهـا فسـيجد الكثـير مـن المراجـع والمصـادر يضـم منهـا إلى قائمتـه مـا يـراه مفيـداً لموضوعـه. ويمكـن للباحـث كتابـة أكـبر عـدد مـن الكتـب في قائمتـه، فـلا يقـول الباحـث لقـد كتبـت خمسـة عـشر كتابـاً وفي هـذا الكفايـة. عـلى الباحـث أن يكتـب أكـبر عـدد مـن الكتـب في قائمتـه لأنـه حـين البحـث عنهـا قـد لا تتوفـر كلهـا، أو قـد يختـار ممـا توفـر منهـا مـا هـو قريـب منـه وفي متنـاول يـده، أي أن الباحـث عندمـا يعـد قائمـة تحتـوي عـلى عـدد كبـير يمكنـه ذلـك مـن الاختيـار.

بعـد تجهيـز قائمـة المصـادر والمراجـع تأتـي مرحلـة البحـث عـن أماكـن وجودهـا، وغالبـاً مـا يكـون ذلـك في مكتبـات القسـم أو الكليـة أو مكتبـة الجامعـة الرئيسـية أو غيرهـا مـن مكتبـات الجامعـات الأخـرى. والمكتبـات مجهـزة بقائمـة الكتـب التـي تحتويهـا فيمـا يعـرف بالكتلـوج. وكتلـوج المكتبـات مقسـم إلى ثـلاث أقسـام، قسـم يحتـوى عـلى كل الكتـب الموجـودة في المكتبـة تحـت أسـماء مؤلفـي الكتـب ومرتـب ترتيبـاً هجائيـاً بحسـب الاسـم الأخـير للمؤلـف، ومصنفـة بطريقـة توضـح مـكان الكتـاب داخـل المكتبـة عـلى الرفـوف.

مثـلاً أذا اردت أن أرى كتـاب تاريـخ السـودان الحديـث لمحمـد سـعيد القـدال موجـود في هـذه المكتبـة أم لا؟ أذهـب إلى مـكان كتلـوج المكتبـة وإن لـم أجـده أسـأل الشـخص الموجـود في مكتـب اسـتقبال المكتبـة عـن مكانـه. والبحـث في الكتلـوج قـد يكـون عـن طريـق الكمبيوتـر أو يكـون يدويـاً عـن طريـق الكـروت المرتبـة في صناديـق صغـيرة عنـد مدخـل المكتبـة. وفي كلا الحالتـين أذهـب عـن مـكان تصنيـف الكتـب وفقـاً

للمؤلف في الكتلوج وأبحث عن حرف القاق حتى أجد القدال فمحمد سعيد القدال، ثم أكتب اسم المؤلف وعنوان الكتاب والأرقام الموجودة على الكرت مثلاً 965.3 وهذه الأرقام تعرف بأرقام التصنيف وتوضح مكان الكتاب على الرف. وبعد ذلك أدخل المكتبة وأبحث عن الكتاب وفقاً للأرقام المكتوبة، وسأجد التوجيهات داخل المكتبة توضح توزيع الأرقام في الأرفف، وترشد إلى أماكنها، وسأجد الكتاب في مكانه.

وإن لم أجده في مكانه أستعين بموظف المكتبة حيث يقوم بالبحث عنه داخل المكتبة أو يوضح أنه مستعاراً، وفي هذه الحالة يمكن للباحث أن يطلب من موظف المكتبة حجز الكتاب له عندما يعاد إلى المكتبة ويأخذ الباحث تاريخ إعادة الكتاب لكي يأتي للسؤال عنه. وفي بعض المكتبات لا يسمح للباحث الدخول بنفسه داخل المكتبة بل يقوم بذلك موظف المكتبة. وفي هذه الحالة يعطي الباحث المعلومات التي أخذها من الكتلوج لموظف المكتبة الذي يقوم بكل العمل إذا وجد الكتاب أو لم يجده.

وإذا كنت لا تعرف اسم المؤلف ولكن تعرف أن عنوان الكتاب «تاريخ السودان الحديث» فتبحث في الكتلوج تحت «العنوان» عن حرف التاء حتى تجد تاريخ، ثم تتابع البحث عن تاريخ السودان الحديث حتى تجد ضالتك. وفي هذه الحالة قد تجد كل الكتب الموجودة في المكتبة بهذا العنوان، وبالطبع ستقوم بكتابتها كلها وكتابة أرقام تصنيفها ثم تبدأ بالبحث عنها كما سبق.

أما إذا لم تكن لديك فكرة عن إي كتاب عن موضوع بحثك، فالأمر ليس صعباً، هنالك تصنيف للكتب حسب الموضوعات. فمثلاً تريد كتابة بحث عن «المهدي والعلماء» ولا تعرف ماذا تقرأ. تذهب إلى قسم التصنيف حسب الموضوعات في الكتلوج وتبحث عن «الثورة المهدية» وستذهب إلى حرف الثاء لأن الألف واللام لا تدخل في الترتيب الأبجدي. وعندما أجد حرف الثاء أواصل البحث حتى أجد ثورة ثم أواصل حتى أجد الثورة المهدية. وسأجد ما هو موجود من الكتب تحت هذا العنوان، وأقوم بنفس الخطوات السابقة في نقل الكتاب والمعلومات عنه. ويمكن البحث عن موضوعي نفسه «المهدي والعلماء» لأنه يمكن أن يكون هنالك كتاب بهذا العنوان.

وفي المكتبات الالكترونية هنالك الكثير من التسهيلات في البحث عن المصادر والمراجع، فتوجد في بعض المكتبات معلومات مخزنة في الكمبيوتر data base

مجموعة في مكان واحد من مختلف المصادر والمراجع عن موضوعات متنوعة يمكن الرجوع إليها تسهيلاً للباحثين. كما إن بعض مكتبات الكليات والجامعات مرتبطة الكترونيّاً ببعضها البعض، وفي هذه الحالة من الممكن أن تبحث من كمبيوتر كلية التربية جامعة الخرطوم كتلوج مكتبة كلية الآداب أو كلية الزراعة جامعة الخرطوم أو كتلوج مكتبة جامعة السودان. وإذا كانت هنالك خدمات إعارة خارجية ممكن أن تستعير الكتاب عبر كليتك. وتوفر بعض الجامعات خدمات لطلبتها بالاشتراك في الدوريات العالمية المشهورة وبعض مكتبات الجامعات الأخرى تسهيلاً للباحثين. كما توجد أيضاً بعض المواقع الالكترونية التي تحتوي على الآلاف من الكتب التي يمكن الاطلاع عليها وفي بعض الأحيان يمكن تحميلها لطبعها أو نسخ جزء من منها.

وبهذه الطريقة يمكنني التوصل إلى عدد من الكتب حول موضوعي. ويمكن البحث عن المزيد من قوائم مراجع ومصادر الكتب التي تحصلت عليها. كما إن هنالك فهارس مطبوعة للمكتبات ودور المخطوطات. وتوجد كتب فهارس مطبوعة تساعد على التعرف على المزيد من المؤلفات مثل كتاب الفهرس لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة ومعجم المطبوعات العربية. وتنشر الدوريات بعد كل فترة زمنية مثل عشرة سنوات مثلا في بعض أعدادها (كتلوجاً) بالموضوعات التي تم نشرها في الدورية مرتبة حسب المؤلف والموضوع لمساعدة الباحثين على التعرف على ما تم نشره في الدورية خلال تلك المدة.

11

مرحلة كتابة البحث ومتطلباتها

بعد أن تمكنا من التوصل إلى مصادرنا ومراجعنا تبدأ مرحلة القراءة وجمع المعلومات ثم كتابة البحث. ومعرفة بعض تلك المتطلبات ضرورية لمرحلة الدراسة الجامعية مثل ما يطلق عليه مهارات وطرق الكتابة. ويتم ذلك في بعض الجامعات عن طريق دراسة مقرر يتناول هذه الموضوعات في الفصول الدراسية المبكرة من الدراسة الجامعية، أو ان يتم ذلك عن طريق توجه الدارس المباشر إلى أساتذته عندما يُطلب منه كتابة بحث صغيرة تكملة لمتطلبات مقرر معين أو عند كتابة بحث التخرج. ولعل من أهم تلك المتطلبات القراءة المبكرة وجمع المعلومات ومراعاة ضوابط اللغة في الكتابة، والاستعانة بالوسائل التوضيحية مثل الخرائط والجداول والأشكال حيثما تطلب الأمر ذلك.

فبعد ان يختار الدارس موضوع بحثه ينبغي علية ان يقوم بقراءة مبدئية عامة للإلمام بأطراف الموضوع ليتمكن من إعداد خطة مبدئية للموضوعات التي سيتناولها في البحث. ويمكن تقسيم هذه الموضوعات إلى فصول او أقسام او الإبقاء عليها في صورة نقاط. وبعد القراءة العامة يبدأ الباحث في رسم خطة قراءة المصادر والمراجع التي ضمنها قائمته، ومن المستحسن ان يعد الباحث نوتة او كراس صغير الحجم لجمع معلوماته.

وفي البداية يقوم الباحث بتدوين كل المعلومات عن الكتاب الذي بدأ قراءته اسم المؤلف وعنوان الكتاب بالكامل ومكان النشر والناشر وتاريخه في أعلى الصفحة. ثم يتصفح الباحث قائمة محتويات الكتاب والكشاف Index إن وجد ليتمكن من تحديد ما يمكن ان يوجد في هذا الكتاب من معلومات تدخل في نطاق بحثه. هذه الخطوة تساعد الباحث في العثور بسرعة على ما يود الاطلاع عليه في الكتاب.

وعـلى الباحـث قـراءة مـا يتعلـق بموضوعـه ثـم تلخيـص الأفـكار بأسـلوبه الخـاص بعـد ان يكتـب رقـم الصفحـة التـي أخـذ منهـا هـذه الأفـكار ويكتـب عنوانـاً للفكـرة التـي دونهـا، امـا إذا اراد نقـل النـص يمكنـه ذلـك عـلى ان يجعلـه بـين علامتـي تنصيـص لكـي يتذكـر فيمـا بعـد ان مـا نقلـه نصـاً. وعـلى الباحـث ان لا يكتـب عـلى ظهـر الورقـة إنمـا يكتـب في صفحـة واحـدة فقـط وان لا يتقيـد في جمـع معلوماتـه بفصـول البحـث او اقسـامه بمعنـى ان لا يخطـط لجمـع مادة الفصـل الأول او القسـم الأول ثـم يرجـع لجمـع مـادة الفصـل الثانـي وهكـذا. فالباحـث يـدون كل مـا يـرى انـه تابـع لبحثـه مـن معلومـات بغـض النظـر عـن موقـع هـذه المعلومـات.

ومـن المستحسـن ان تكـون كل فكـرة او عنـوان عـلى صفحـة مسـتقلة تتضمـن هـذه الصفحـة عنـوان الكتـاب ورقـم الصفحـة التـي أخـذت منهـا المعلومـات. وعندمـا يمـضي الباحـث بعـض الوقـت في جمـع المعلومـات يمكنـه مراجعـة تلـك المعلومـات عـن طريـق العناويـن التـي كتبهـا ويراجعهـا مـع فصـول او اقسـام بحثـه، وسـوف يـدرك المـدى الـذي توصـل إليـه في جمـع معلوماتـه. ربمـا أحـس الباحـث بأنـه في حاجـة إلى المزيـد مـن المعلومـات، او ربمـا أحـس بـأن مـا جمعـه فيـه الكفايـة. فيقـوم في هـذه الحالـة بعمـل قائمـة بالعناويـن التـي جمعهـا ويوزعهـا عـلى فصـول بحثـه وقـد يجـد نفسـه في حاجـة إلى تعديـل الخطـة المبدئيـة او قـد يسـير عليهـا كمـا هـي.

وبعـد هـذه المرحلـة يقـوم الباحـث بقـراءة المعلومـات التـي جمعهـا عـن الفصـل او القسـم الأول وتصنيفهـا إلى عناويـن حسـب أقسـام الفصـل ويراجـع مـادة كل عنـوان ثـم يبـدأ في كتابـة العنـوان ممـا لديـه مـن مـادة مجموعـة، وهكـذا يعمـل في كتابـة بقيـة الفصـل او الفصـول التاليـة. وللكتابـة متطلبـات كثـيرة يتعلـق بعضهـا بسـلامة اللغـة مـن حيـث قواعـد الإعـراب والاهتمـام بعلامـات الترقيـم والاسـلوب المبـاشر في شرح ومعالجـة القضايـا المطروقـة، وإتبـاع أسـلوب الفقـرات في الكتابـة. ومـن المستحسـن ان لا تكـون الفقـرات طويلـة وليسـت صغـيرة جـداً، أي يمكـن ان تكـون بـين اربعـة إلى ثمانيـة أسـطر ومـن العيـب ان لا يُراعـى نظـام الفقـرات في كتابـة البحـث.

وعـلى الباحـث تجنـب الاسـتطراد وتحـاشي اسـتعمال بعـض الألفـاظ مثـل: ومـن المؤكـد أو يؤكـد الباحـث أو مـن الثابـت وممـا لا شـك فيـه. فـلا تسـتخدم مثـل هـذه الألفـاظ حتـى ولـو كان لـدى الباحـث ثقـة في معلوماتـه أو تحليلاتـه. ومـن المتحسـن

استعمال الألفاظ المرنة مثل: ويبدو معقولاً، أو ويؤيد الكثير من الباحثين، أو يميل الباحث إلى كذا. كما ينبغي تجنب المقدمات الطويلة في بدية الفصول. ومن المهم جداً ربط الفصول ببعضها بأن تكون آخر فقرة في الفصل مدخلاً للفصل التالي. ويجب أن تكون عدد صفحات الفصول متناسبة، فإن كان عدد صفحات الفصل الأول مثلاً عشرون صفحة يجب أن تكون باقي الفصول في هذه الحدود ويمكن أن تزيد أو تنقص قليلاً. ولكن لا يكون بعضها خمسة وثلاثون ورقة أو عشرة ورقات. ومن الملاحظ أن بعض الطلبة يستخدم بعض الألفاظ القطعية.

ومن الأشياء الهامة المتعلقة بمتطلبات الكتابة الاهتمام بالوسائل التوضيحية في البحث. فعلى الباحث مثلاً الاهتمام بالخرائط لأن ربط الحدث التاريخي بزمانه فقط لا يكفي فلابد من ربطه بالمكان أيضاً، والخرائط تساعد كثيراً على فهم المادة المقروءة خاصة إذا تناول البحث بعض المواقع الجغرافية. كما تعتبر الجداول والأشكال من الوسائل الهامة أيضاً في شرح المعلومات المطلوبة في حالة استخدام كثير من الأرقام إذ تساهم كثيراً في ربط المعلومات بعضها ببعض وسرعة استخلاص وفهم النتائج. كما يمكن للباحث استخدام صور او أي اشكال ورسومات اخرى illustrationsيرى انها قد تساعد في فهم المعلومات او الأفكار المعروضة. وكثيراً ما يستعين الباحثون بالملاحقappendices للزيادة في شرح بعض نقاط البحث او إثبات نصوص الاتفاقيات او نصوص الوثائق التي لا يتحمل البحث تضمينها في المتن.

وأخيراً كلمات قليلة عن مقدمة البحث وخاتمته. من المفترض في مقدمة أي بحث بيان ما سيتناوله موضوع البحث والغرض منه وكيف سيتم تناول الموضوع. الغرض من المقدمة بيان ما ستقوم به وكيف ستفعل ذلك، ولا ينبغي أن تدخل في أحداث أو الموضوعات التي ستتناولها. إذا أردت ذلك يمكن إعطاء فكرة موجزة عن فصول البحث. أما الخاتمة فهي تمثل ما توصل إليه الباحث من نتائج، ويمكن أن يسأل الباحث نفسه ما لذي قدمه هذا البحث؟ أو ما الذي استفدته من هذا البحث؟ ما هو رأيه فيما توصل إليه وهل لديه أي توصيات أو أفكار لم يتم تناولها؟ فالخاتمة ليست ملخصاً موجزاً للبحث.

12

التوثيق: الهوامش وترتيب قائمة المصادر والمراجع

التوثيق من المتطلبات الأساسية في كتابة البحث، وهو الاشارة إلى المكان الذي رجع إليه الباحث في أخذ المعلومات أو الأفكار عما كتبه وهو ما يعرف بالهامش أو الحاشية. ونود هنا التعريف باختصار عن لماذا نستخدم الهوامش أو الحواشي؟ هل القيام بعمليات التوثيق وكتابة الهوامش ضروري؟ وما هي الطريقة أو الطرق التي نتبعها في كتابتها؟

التوثيق وكتابة الهوامش ضروري في كتابة البحوث لأسباب كثيرة، فهو يوضح مكان المعلومات التي استخدمها الباحث. وهذا التوضيح هام من عدة نواح، فهو في البداية يمثل عرفاناً وحفظاً لحق من قام بإعداد العمل الذي رجع إليه الباحث. فالباحث مثلاً إذا أخذ معلومة من كتاب أو من وثيقة ولم يشر إلى مكانها يكون قد مثل الشخص الذي يعتدي على حقوق الآخرين دون وجه حق. ورغم أن المثل السائر يقول أن «الكلمة ملك صاحبها فإذا كتبها أو نشرها أصبحت ملك للجميع» فالجميع لهم الحق في استخدام ما كتب أو نشر بأي وسيلة من وسائل النشر ولكن لا بد من حفظ حق صاحب الكلمة بالرجوع إليه فيما نعرفه بتوثيق المعلومة أو الخبر.

ومن ناحية أخرى فالهوامش ضرورية لأنها تعطي القارئ أو الممتحن فكرة عن مصدر المعلومة التي استخدمها الباحث، وبالتالي يتمكن القارئ الحكم عليها وتكوين رأي عن مدى الوثوق بها ومصداقيتها. فلو وجد القارئ أن الباحث رجع إلى مصادر أصلية كالوثائق مثلاً فإنه سيطمئن لما أورده الباحث

مـن معلومـات، إمـا إذا وجـده رجـع إلى مراجـع عامـه فسـيكون الحكـم عـلى المعلومة مختلفـاً. ومـن ناحيـة أخـرى قـد يريـد الممتحـن أو القـارئ للبحـث رؤيـة أصـل المـادة التـي رجـع إليهـا الباحـث للتأكـد مـن صحـة مـا أورده، أو مـن أجـل البحـث عـن زيـادة في المعلومـات تعـرض إليهـا الباحـث.

وإلى جانـب التوثيـق تسـتخدم الهوامـش أيضـاً لأغـراض أخـرى متعلقـة بمـا يـرَدِ في البحـث. فـإذا أراد الباحـث مثـلاً شرح بعـض العبـارات أو المصطلحـات أو أراد أن يحيـل القـارئ إلى مـكان آخـر في البحـث تعـرض فيـه للموضـوع الـذي يناقشـه ولا يريـد تكـرار ذلـك أو أراد إحالـة القـارئ إلى النظـر إلى وسـيلة توضيـح مثل جـدول أو خريطـة أو ملحـق اسـتخدمه الباحـث، في كل الحـالات يتـم ذلـك في الهامـش. ونعطـي مثـالاً لذلـك عندمـا نتنـاول طريقـة كتابـة الهوامـش.

وهنالك ثلاث أنواع من الهوامش هي:

1. هامش في أسفل كل صفحة ويطلق عليه «footnote».
2. هامش في نهاية البحث او نهاية كل فصل أو باب ويطلق عليه «endnote».
3. هامش يكتب بين قوسين داخل متن البحث ويطلق عليه «parenthetical note» .

يسـاعد الكمبيوتـر كثـيراً عـلى كتابـة الهوامـش مـن النوعـين الأول والثانـي، فمـا عـلى الباحـث إلا وضـع سـهم المـاوس في المـكان الـذي يريـد كتابـة الحاشـية عليـه، ثـم ينقـر عـلى References فتظهـر Insert footnote ينقـر عليهـا فيظهـر رقـم الهامـش في أسـفل الصفحـة. ويختـار الباحـث طريقـة ترقيـم الهوامـش هـل يريـد أن يعطـي كل صفحـة أرقـام منفصلـة أو يريـد أن تكـون أرقـام الهوامـش متصلـة. ثـم يبـدأ كتابـة الهامـش. وللهوامـش منهـج ينبغـي مراعاتـه في الكتابـة، ويختلـف هـذا المنهـج أو الطريقـة باختـلاف الهوامـش.

ويوجـد عـدد مـن المؤلفـات باللغتـين العربيـة و الإنجليزيـة في مجـال طريقـة كتابـة البحـوث مثـل كتـاب: «كيـف تكتـب بحثـاً أو رسـالة» لأحمـد شـلبي وكتـاب «مناهـج البحـث وطـرق كتابـة الرسـائل الجامعيـة» لعبـد الرحمـن احمـد عثمـان وكتـاب «التاريـخ: تأريخـه وتفسـيره وكتابتـه» لعبـد العزيـز عبـد الغنـي، وبالإنجليزيـة مثـل:

A Manual for Writers of Term papers, Theses and Dissertations. By Kate L. Turapian;

How to Write Term Papers and Reports. By Career Horizon;

The research Paper: process, forms and content. 6th Edition, By Audry J. Audry.

كتابة الهوامش:

تختلف المدارس والمؤسسات الأكاديمية في الطرق التي تتبعها في كتابة الهوامش، غير أن تلك الاختلافات ليست كبيرة وتختلف عادة في وضع علامات الترقيم أو الأقواس. ولا تختلف طريقة كتابة الهامش باللغة العربية عنها باللغة الانجليزية إلا في أشياء بسيطة. وسأكتب الأمثلة للهوامش باللغة العربية ثم أوضح الطريقة باللغة الانجليزية. وقد اعتمدت في ذلك على منهج أو طريقة جامعة شيكاغو The Chicago Manual of Style وهي الطريقة المشهورة والمستخدمة عالميّاً بصورة واسعة. وقد اعتمت في ذلك على كتاب Kate L. Turapin المذكور أعلاه.

كتابة الهامش في المرة الأولي:

إذا كان مؤلف الكتاب شخص واحد أو شخصان يكتب الهامش كما في المثال في الهامش:

1. وكانت شبه الجزيرة العربية كما نقل جواد علي عن علماء الآثار «خصبة جداً كثيرة المياه تتساقط عليها الأمطار بغزارة في جميع فصول السنة، وكانت ذات غابات كبيرة وأشجار ضخمة كالأشجار التي نجدها في الزمان الحاضر في الهند وأفريقيا»[1]

ينبغي ملاحظة الآتي:

أ. بدأ الهامش بكتابة الاسم الأول للمؤلف وليس اسم الأسرة

ب. علامات الترقيم الفاصلة أو الشولة بعد اسم المؤلف، ثم خط تحت عنوان الكتاب، ثم مكان نشر الكتاب وبعده نقطتان رأسيتان، ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، ثم رقم الجزء لو وجد وأخيراً رقم الصفحة.

ت. وفقاً لطريقة جامعة شيكاغو (باللغة الانجليزية بالطبع) توضع المعلومات عن مكان النشر والناشر وتاريخ النشر بين قوسين[2]. وقد اتبعنا ذلك في اللغة العربية.

---

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (العراق: جامعة بغداد 1993) ج 1 ص 240.

(2) H. A. McMichael, A History of the Arabs in the Sudan London: Frank Cass &Co. Ltd. 1967 Vol. 1 p 25.

ث. وفي حالة الكتاب باللغة الانجليزية تتبع نفس الخطوات لكن بدلاً من خط تحت عنوان الكتاب يكتب عنوان الكتاب بالخط المائل هكذا: A Manual for Writers of Term papers وقد اتبعنا الطريقة التي تستخدم كثيراً في اللغة العربية وهي وضع خط تحت اسم الكتاب.

إذا كان للكتاب مؤلفين يكتب اسمها في الهامش مثل: محمد سعيد القدال وحسن أحمد محمود، ثم اسم الكتاب وبقية الهامش. أما إذا كان للكتاب ثلاث مؤلفين فأكثر نكتب اسم المؤلف الأول فقط ثم نضيف وآخرون مثل: محمد أحمد محمود وآخرون، ثم بقية الهامش.

وأحياناً يكون للكتاب محرر editor وليس مؤلف، والمحرر هو الذي يجمع عدداً من المقالات حول موضوع معين في كتاب واحد، وقد يكون له واحد من تلك المقالات أو لا. وفي هذه الحالة إما أن يكون أسماء كتاب المقالات موضحين مع كل مقال أو لا. فإن لم تكن أسماء الكُتاب موضحة تكتب الحاشية كما هو موضح في الهامش.[1] ولو كان الكتاب باللغة الانجليزية تكتب ed. اختصار editor وأحيانا توضع ed. بين قوسين. أما إذا كانت أسماء كُتّاب المقالات موجودة فيكتب كما هو موضح في الهامش.[2] ونلاحظ الآتي:

أ. يوجد كاتبين للمقال بعد اسميهما فاصلة
ب. عنوان المقال مكتوب بين علامتي تنصيص « «
ت. اسم المحرر بين قوسين وبعده فاصلة، ذكرنا أن طريقة جامعة شيكاغو – باللغة الانجليزية – لا تضع اسم المحرر بين قوسين لكن رأينا اتباع المنهج الذي يضعه بين قوسين لكي لا تختلط كلمة محرر بالاسم. فبدلاً من : محمد عبد الفتاح محرراً يكون من الأحسن وضعها: محمد عبد الفتاح (محرراً)،
ث. اسم الكتاب تحته خط، والكتاب عبارة عن أعمال مؤتمر فنكتب اسم المؤتمر والجهة التي أقامته وتاريخ انعقاده. وفي حالة المؤتمرات نكتب باللغة الإنجليزية: Proceeding of the 1st International conference

(1) محمد عبد الفتاح (محرر)، تاريخ افرقيا القاهرة: الانجلو المصرية ب ت ص 17.

(2) الحاج حمد محمد خير وميمونة ميرغني حمزة، «الدراسات الأكاديمية والثورة المهدية» في عمر عبد الرازق النقر (محرر)، دراسات في تاريخ المهدية البحوث التي قدمت للمؤتمر العالمي لتاريخ المهدية، الخرطوم 29 نوفمبر – 2 ديسمبر 1981، الخرطوم: قسم التاريخ بجامعة الخرطوم ب ت مجلد 1 ص 100.

ج. تاريخ طباعة الكتاب غير موضح فكتبنا ب ت اختصار لـ: بدون تاريخ. وإذا لم يوجد ناشر نكتب ب ن أي بدون ناشر أو ب م ن = بدون مكان نشر.

كتابة الدوريات والرسائل الجامعية في الهامش:

تكتب الدورية كما هو موضح في الهامش[1] ويلاحظ الآتي:

أ. كتابة اسم الكاتب بعده فاصلة.
ب. عنوان المقال بين علامتي تنصيص.
ت. اسم المجلة وتحته خط مكان إصدارها ورقم العدد (والتاريخ بين قوسين) أحيانا لا يوضع القوسان.
ث. الاختلاف في حالة اللغة الانجليزية.

الرسائل الجامعية:

تكتب كما في الهامش[2]

كتابة الحواشي بعد المرة الأولى:

إذا أردنا الرجوع في الحاشية لكتاب رجعنا إليه كما سبق مثل كتاب المفصل في تاريخ العرب فنرجع إليه كما في الهامش[3] وإذا اردنا أن نرجع إلى نفس الكتاب - في نفس المكان أو في صفحة أخرى - في الهامش التالي مباشرة نرجع إليه كما في الهامش.[4] وإذا رجعنا إلى ابراهيم عثمان يكون الهامش كالآتي[5] أما باللغة الانجليزية فلو أردنا الرجوع إلى ماكمايكل مرة أخرى في غير المكان السابق نرجع إليه كما في الهامش.[6] وإذا أردنا أن نرجع إلى نفس المكان الذي رجعنا إليه في الهامش السابق (vol. 1 p 56) نكتبه كالآتي[7] و Ibid. هنا تعني

(1) ابراهيم عثمان حسن، «تقويم منهج الرياضيات للسنة الأولى ثانوي» مجلة كلية التربية تصدر عن كلية التربية جامعة الخرطوم، السنة الثانية (ديسمبر 2008) ص 150؛ وليام آدمز، «اختراع النوبة» ترجمة أسامة عبد الرحمن النور، أركاماني:مجلة الآثار والنثروبولوجيا السودانية عدد رقم 2 (2000) ص 6 http://arkamani.com

(2) حامدة أبوبكر مصطفى الطاهر، «الآثار الاجتماعية للفتوحات الاسلامية في الحجاز والعراق منذ الفتح حتى نهاية العصر الأموي» رسالة دكتوراة غير منشورة قدمت في قسم التاريخ كلية الآداب جامعة الخرطوم، 2000.

(3) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب ص ج 1 ص 20. أو جواد علي، المرجع السابق ج 1 ص 20. الطريقتان مستخدمتان وكلاهما صحيحة.

(4) نفس المرجع السابق ج 2 ص 3، أو نفس المكان السابق لو رجعنا إلى نفس الجزء والصفحة الماضية.

(5) ابراهيم عثمان، المرجع السابق ص 155، أو المرجع السابق، المكان نفسه.

(6) H. A. McMichael, A History of the Arabs vol. 1 p 56.

(7) Ibid.

نفس المرجع في نفس المكان السابق. وإذا رجعنا إليه مباشرة ولكن ليس في نفس المكان نكتبه كما في الهامش.[1]

كتابة الهوامش في نهاية البحث أو في نهاية الفصل:

لكتابة الحواشي في نهاية البحث أو نهاية الفصل اضغط بالجهة اليمنى من الماوس في مكان الهامش فيظهر المربع وعليه الخيارات بما فيها «خيار الحاشية note options » فتضغط على خيار end note نهاية البحث، ويقوم الكمبيوتر بالترقيم تلقائيّاً. وطريقة كتابة الهامش في نهاية البحث لا تختلف عن كتابة الحاشية في أسفل الصفحة.

كتابة الهامش داخل المتن parenthetical note»

تكتب هذه الحاشية في داخل النص (وهي مختصرة جداً) ولذلك لا تستخدم بصورة عامة في العلوم الإجتماعية مثل التاريخ، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية. فهذه النوع من العلوم قد تحتاج إلى توضيحات او شروح في الهوامش تتطلب المزيد من الكتابة، ولذلك يغلب فيها استعمال النوعين الأولين من الحواشي الحاشية في نهاية الصفحة او الحاشية في نهاية البحث. ويتضمن هذا النوع من الحاشية الاسم الأخير من المؤلف وسنة طباعة الكتاب ثم فاصلة ورقم الصفحة، وكل ذلك بين قوسين. المثال لذلك: (القدال 1981، 25). ويتبع هذا النوع من الحواشي ترتيب معين في قائمة المصادر والمراجع كما سنوضح ذلك.

ترتيب قائمة المصادر والمراجع:

ترتب قوائم المصادر والمراجع ترتيباً هجائياً يبدأ بالاسم الأخير للمؤلف ولا يدخل حرف التعريف «ال» في الترتيب الهجائي. وهنالك من يدخل ابن وأبو في الترتيب الهجائي وهنالك من لا يدخلهما. ويجب وضع تاريخ النشر مباشرة بعد اسم المؤلف في حالة استخدام نظام الحاشية داخل النص. أما في حالة اتباع نظام الحاشية في نهاية الصفحة أو في نهاية البحث فيمكن وضع تاريخ النشر بعد اسم المؤلف مباشرة أو في النهاية بعد النشر، لكن ينبغي على الباحث اتباع طريقة واحدة أي لا يخلط بين الطريقتين.
ويتم ترتيب كل الكتب التي استخدمت في البحث من كتب ودوريات وغيرها في قائمة المصادر والمراجع في حالة البحوث الصغيرة والبحوث المكملة للمقررات

(1) Ibhd. P 30.

الدراسية دون تقسيمها. أما في حالة بحوث التخرج والدبلومات يستحسن تقسيم قائمة المصادر والمراجع حسب ما تتضمنه من مصادر ومراجع. وفيما يلي عرض لما يمكن أن تتضمن قائمة المصادر والمراجع من أقسام أو تتضمن بعضاً منها مع إيراد بعض الأمثلة في كل قسم:

القسم الأول قائمة بالمصادر او الوثائق:

في حالة المصادر المطبوعة يكتب المصدر كالآتي:

- ابن حوقل، كتاب صورة الأرض بيروت: دار مكتبة الحياة 1979.
- وفي حالة الوثائق يكتب اسم الوثيقة ورقمها ومكان وجودها مثل:
- مجموعة السكرتير الاداري الصنف 66، تقارير، دار الوثائق المركزية الخرطوم.
- أنور ابراهيم إلى الخليفة في 9 ذي الحجة 1304 / 29 أغسطس سنة 1887، مهدية/4/19 دار الوثائق المركزية الخرطوم.

القسم الثاني قائمة للمراجع العربية:

تتضمن هذه القائمة معظم مراجع البحث وتشمل الكتب العربية والكتب المترجمة إلى اللغة العربية إن وجدت كما يمكن أن تتضمن الرسائل الجامعية إذا تم الرجوع إلى عدد قليل منها. ويتم كتابة قائمة المصادر والمراجع للباحث الذي يتبع نظام الحاشية داخل النص كالآتي: يكتب أولاً اسم المؤلف الأخير أو اسم العائلة أو اللقب ثم فاصلة ثم بقية الاسم، ثم تاريخ النشر بين قوسين ثم اسم الكتاب تحته خط، ثم مكان النشر متبوعة بنقطتين رأسيتين واسم الناشر. مثال ذلك:

- حامدة أبوبكر مصطفى الطاهر، «الآثار الاجتماعية للفتوحات الاسلامية في الحجاز والعراق منذ الفتح حتى نهاية العصر الأموي» رسالة دكتوراة غير منشورة مقدمة إلى قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الخرطوم 2000.
- القدال، محمد سعيد (1981) تاريخ السودان الحديث. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

القسم الثالث قائمة بالمراجع غير العربية:

Holt, P. M.The Mahadist State in the Sudan Oxford: Clarendon Press – 1958.

القسم الرابع الدوريات

وكتابة الدوريات في قائمة المراجع والمصادر تبدأ بالإسم الأخير للمؤلف ثم فاصلة وبقية الاسم ثم تاريخ النشر بين قوسين ثم عنوان المقال بين علامتي تنصيص» « ثم اسم الدورية تحته خط ثم جهة إصدارها ثم رقم العدد وبيان صفحات الموضوع، مثال لذلك:

حسن، إبراهيم عثمان (2008) «تقويم منهج الرياضيات للصف الأول الثانوي» مجلة كلية التربية، تصدر عن كلية التربية بجامعة الخرطوم، السنة الثانية العدد الثالث ص 149-181.

المصادر والمراجع

(1) بالمر، هاري المر، تاريخ الكتابة التاريخية ترجمة محمد عبد الرحمن القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983م.

(2) تاج السر أحمد حران، المدخل إلى علم التاريخ الرياض: مكتبة الرشيد 2003م.

(3) الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم تحقيق ف. عبد الرحيم ، دمشق: دار القلم 1999م.

(4) .الجوهري، الصحاح مصر: دار الكتاب العربي، القاهرة، (ب. ت).

(5) حاجي خليفة، كشف الظنون موقع الوراق warraq.com

(6) حسين، أحمد الياس «منهج البحث التاريخي عند الكافيجي في رسالته المختصرة في علم التاريخ» مجلة كلية التربية تصدرها كلية التربية، جامعة الخرطوم، العدد الأول .

(7) ابن خلدون، المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي القاهرة: لجنة البيان 1957م.

(8) الخوارزمي، مفاتيح العلوم القاهرة: مطبعة الشرق (ب. ت).

(9) الرازي، مختار الصحاح الكويت: دار الرسالة 1983.

(10) السخاوي: الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ بيروت: دار الكتب العلمية (ب. ت)

(11) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن. بيروت: دار الفكر 1405هـ.

(12) ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح تحقيق عائشة عبد الرحمن دار الكتب: 1974م.

(13) عفت الشرقاوي، في فلسفة التاريخ ط 4 بيروت: دار النهضة العربية 1985م.

(14) عبد الحميد صديقي، التفسير الإسلامي للتاريخ بيروت: دار العلم للملايين 1984م.

(15) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، التاريخ: تأريخه وكتابته وتفسيره الخرطوم: الدار السودانية للكتب 1999م.

(16) كولنجود، ر. ج. فكرة التاريخ، (ترجمة)محمد بكير خليل القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر 1961م.

(17) لسنج، تربية الجنس البشري ترجمة وتعليق حسن حنفي القاهرة: دار الثقافة الجديدة 1977م.

(18) المسعودي، أخبار الزمان دار الأندلس (ب. ت).

(19) المقدسي، البدء والتاريخ. موقع الوراق

(20) هوجوتهولد افرايم لسنج، الجنس البشري ترجمة وتعليق حسن حنفي ط 1 القاهرة: دار الثقافة الجديدة 1977م.

(21) محمد أسد، «التراث وأثره على أوربا» مجلة الزهراء، جامعة الأزهر، كلية الدراسات العربية فرع البنات (عدد 5 يناير 1987م.

(22) Turban, Kate L. A manual for Writers of Term Papers, Theses, and Dissertations Six Edition Chicago: The University of Chicago 1996AD.

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation